معالـم الإخــلاص في ضــوء ســورة الزمــر

د. عبد الرحمن بن ناصر اليوسف
قسم القرآن وعلومه - كلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

معالـم الإخــلاص في ضــوء ســورة الزمــر

د. عبد الرحمن بن ناصر اليوسف
قسم القرآن وعلومه – كلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث:

لقد ارتقى القرآن الكريم بالنفس الإنسانية في أعلى مراتبها، وسعى لإصلاحها وتهذيبها عما يشوبها، ويكدر صفوها، وعمل على ربطها بخالقها، التزاماً بشرعه القويم، قولاً وعملاً واعتقاداً، وأكد الكتاب العزيز أن قبول الأعمال مرهون بـ(الإخلاص) للمولى الكريم، فلا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه الله تعالى، صواباً وفق سنة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم.

ولذا جاءت سياقات من آي الذكر الحكيم داعية إلى (الإخلاص) لله جل في علاه، محذرة مما يضاد ذلك المقصد المكين، والأس المتين، مما يحبطه أو ينقصه . وقد تناول البحث سورة قرآنية أكدت على موضوع (الإخلاص لله تعالى)، وهي سورة (الزمر)، والتي طالما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأها في لياليه ؛ لما انطوت عليه من تقرير هذا الأصل الأصيل، وما أولته إياه من العناية والاهتمام.

هذه السورة العظيمة الشأن والمكانة، التي تأخذ بمجامع القلوب، وتوقظها من الغفلة، وتثير فيهاالوجل والخشية من علاّم الغيوب ؛ لعظمة معانيه وحقائقها، وعظاتها وعبرها.

فمقصد السورة والمحور الذي تدور عليه: (الإخلاص لله تعالى)، وقد عرضته السورة بأساليب متعددة: فتارة بالأمر الصريح، وأخرى بالنهي عن ضده، وحيناً بضرب المثل العقلي للمفارقة بينه وبين نقيضه، ومرة بتعزيز مفهومه وقيمته، وموطناً بذكر مايدفع لتحقيقه من التفكر والتأمل في ملكوته ... وغير ذلك من صور تقريره، مما يعمق التأكيد على أهمية الإخلاص، وحضور معناه ؛ ليكون رائدنا في كل الأحوال.

Aspects of Sincerity in the Light of Surat Az-Zumar

Dr. Abdul Rahman bin Nasser Yousef

Department of Quran and its Sciences-Faculty of Fundamentals of Islam
Al-Imam Mohammad Ibn Saud Islamic University

Abstract:

The Holy Qur'an has elevated the human soul to the highest status. It has also reformed and purified their souls from impurities and corruptions. It has linked their souls with their Creator, as a compliance with His righteous order, in words, deeds, and belief. The Holy Qur'an has emphasized that the acceptance of deeds is conditioned by sincerity to Allah, as no deeds will be accepted except those are performed for the sake of Him, and according to the Sunnah of the prophet (peace be upon him).

Therefore, Qur'anic verses have called for (sincerity) to Allah, the exalted, and warned against what might contradict, diminish, or degrade that noble aim and substantial base. Thus, this study addresses surat (az-Zumar) that has stressed on the issue of (sincerity to Allah). The prophet (peace be upon him) used to recite this Sura at night because it stresses on this essential principle and gives it great attention.

This great Sura has a high status due to its profound influence on the hearts. It awakens the hearts and arouses fear from Allah, the Knower of the unseen. For its great meanings, facts, exhortations, and lessons. The core of the Sura is (sincerity to Allah), which the Sura has addressed in different ways: direct command, forbidding people from going against it, giving a logical parable for comparison and contrast, emphasizing the concept and value of sincerity, referring to what might motivate people to achieve it, such as meditating and contemplation about His universe, or other ways of confirming this noble value. This emphasizes the importance of sincerity and its presence in our hearts as well as being our guide in all aspects of our life.

المقدمة:

الحمد لله، جعل الإخلاص خلاصاً للعالمين، وشعاراً للمؤمنين، ودليلاً للمتقين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، مخلصين له الدين، ولو كره الكافرون، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله، سيد الحنفاء، وإمام الأتقياء، وأخلص من قام لرب الأرض والسماء، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه البررة الكرام، الذين أخلصوا دينهم لله، وطلبوا مرضاته، فرضي الله عنهم وأرضاهم، والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ، واقتفى أثرهم، واهتدى بنهجهم، وسلَّم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإن القرآن الكريم ارتقى بالنفس الإنسانية في أعلى مراتبها، وسعى لإصلاحها وتهذيبها عمَّا يشوبها، ويكدِّر صفوها، وعمل على ربطها بخالقها، التزاماً بشرعه القويم، قولاً وعملاً واعتقاداً، وأكد الكتاب العزيز أن قبول الأعمال مرهون بـ(الإخلاص) للمولى الكريم، فلا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجه الله تعالى، صواباً وفق سنة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم.

ولما سئل الفضيل بن عياض – رحمه الله – عن قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [سورة تبارك: ٢] قال: "أخلصُهُ وأصوبُهُ، لأنه إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص: إذا كان لله تعالى، والصواب: إذا كان على السنة"[1].

وقال الناظم:

واعلم بأن الأجر ليس بحاصل	إلا إذا كانت له صفتانِ
لابد من إخلاصه ونقائه	وخلوه من سائر الأدرانِ
وكذا متابعة الرسول فإنها	شرط بحكم نبينا العدنانِ[2]

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان ٣٥٥/٩، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٩٨/٨، رقم: (١١٤٨٧)، وانظر: الاستقامة ٣٠٨/٢، ومدارج السالكين ٩٧/٢، وجامع العلوم والحكم ص١٢.

(٢) انظر: الشامل ص٢٢.

إن مدار الأعمال كلها قائم على النية، والأمور بمقاصدها، فمن خلصت نيته لربه أفلح ورشد، ومن ساءت نيته خاب وخسر؛ ولذا جاءت سياقات من آي الذكر الحكيم داعية إلى (الإخلاص) لله جل في علاه، محذرة ما يضاد ذلك المقصد المكين، والأس المتين، مما يحبطه أو ينقصه.

كما سميتا سورتا: (قل هو الله أحد) و(الكافرون) بـ(الإخلاص)؛ لإثباتهما التوحيد الخالص لله جل جلاله، وعظم ثناؤه، وتقدست أسماؤه، وانفردت (قل هو الله أحد) عند إطلاقها بتسميتها: (سورة الإخلاص).

ومن السور القرآنية التي أكدت على موضوع (الإخلاص لله تعالى) سورة (الزمر)، والتي طالما كان رسول الله يقرأها في لياليه؛ لما انطوت عليه من تقرير هذا الأصل الأصيل، وما أولته إياه من العناية، والاهتمام.

هذه السورة العظيمة الشأن والمكانة، التي تأخذ بمجامع القلوب، وتوقظها من الغفلة، وتثير فيها الوجل والخشية من علَّام الغيوب؛ لعظمة معانيها وحقائقها، وعظاتها وعبرها.

فمقصد السورة، والمحور الذي تدور عليه (الإخلاص لله تعالى)، وقد عرضته السورة بأساليب متعددة: فتارة بالأمر الصريح، وأخرى بالنهي عن ضده، ومرة بضرب المثل العقلي للمفارقة بينه وبين نقيضه... وغير ذلك من صور تقريره وتأكيده.

كما انفردت سورة الزمر بذكر (الإخلاص) بتصريفه أربع مرات[1]، دلالة على أهميته، ووجوب تحقيقه.

---

(١) الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ ﴾.
الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ۝٣ ﴾.
الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ ﴾.
الموضع الرابع: قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ۝١٤ ﴾.

من هنا توجهت لدراسة موضوع: (معالم الإخلاص في ضوء سورة الزمر)، سائلاً المولى عز وجل الإخلاص والمتابعة في القول والعمل، وصلاح النية، ونقاء السريرة، وسلامة المنهج، إنه خير مسئولٍ، وأكرم مأمولٍ. وقد حددت خطة البحث على النحو التالي:

المقدمة: وتشتمل على: الافتتاح، وأهمية الموضوع، وعنوان البحث، وخطة البحث.

التمهيد: (بين يدي السورة)، وتضمَّن:

أولاً: اسم السورة.

ثانياً: عدّ آياتها.

ثالثاً: نزول السورة.

رابعاً: مقصد السورة.

المبحث الأول: تعريف الإخلاص لغةً واصطلاحاً.

المبحث الثاني: الأمر بإخلاص العبادة لله تعالى.

المبحث الثالث: تجريد دين الله عما يضاد الإخلاص ويشوبه.

المبحث الرابع: رضا المولى الكريم عمَّن أخلص له الدين، وحسن مآله.

المبحث الخامس: إجابة دعاء المخلص حال الضراء.

المبحث السادس: ضرب المثل على إخلاص التوحيد لله، ونفي الشريك معه.

المبحث السابع: الإخلاص في التوبة والعمل.

المبحث الثامن: عظمة الله في خلقه دافعة للإخلاص له.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج التي توصلت إليها.

ثبت المصادر والمراجع.

* * *

أولاً: اسم السورة:

- سُميت سورة (الزُّمَر)[1]، واشتهرت بهذا الاسم، حيث ذُكر فيها سَوْق المؤمنين المكرمين جماعاتٍ إلى جنات النعيم، وسوق الكافرين صاغرين جماعاتٍ إلى نار الجحيم.

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[2] [سورة الزمر: ٧١]، وفي المقابل: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[سورة الزمر: ٧٣].

وقد ورد تسميتها بسورة (الزُّمَر) في حديث أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها– قالت: "كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم– يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ في كل ليلة ببني إسرائيل والزُّمَر"[3]، وفي

---

(١) الزُّمَر: على وزن (فُعَل) جمع زُمْرَةٍ، والزُّمْرَةُ: الفوج أو الجماعة من الناس، وقيل: الجماعة في تفرقة بعضها في إثر بعضٍ، والزُّمَرُ: الجماعات.

انظر: الصحاح ٥٤٩/١ (زمر)، وأساس البلاغة ١٤٢١/١ (زمر)، ولسان العرب ٣٢٩/٤ (زمر).

قال ابن المنير في التيسير العجيب ص١٥٨:

وزُمَـــراً جماعـــةٌ فـــي تفرقـــهْ ... يـــؤتى بهـــم طبقـــةٌ فطبقـــهْ

وقال الديريني في التيسير في التفسير ص٢٢٦:

وزُمْـــرَةٌ: جماعـــةٌ والزُّمَـــرُ ... هـــي الجماعـــاتُ التـــي تُعتبَـــرُ

(٢) وردت قراءة شاذة عن أبي عاصم عبيد بن عمير (ت: ٧٤هـ) برفع (زمرٌ) انظر: شواذ القراءات للكرماني ص٤١٦.

(٣) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح، كتاب فضائل القرآن، ١٦٦/٥، رقم: (٢٩٢٠)، وقال:"هذا حديث حسن غريب"، والنسائي في السنن الكبرى، كتاب عمل اليوم والليلة، الفضل في قراءة ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾، ٢٦٣/٩، رقم: (١٠٤٨٠)، وفي تفسيره ٢٢٧/٢، رقم: (٤٦٤)، وقال محققاه: "صحيح"، وأحمد في مسنده ٤٥٢/٤٠، رقم: (٢٤٣٨٨)، وابن خزيمة في صحيحه، جماع أبواب صلاة التطوع بالليل، باب استحباب قراءة بني إسرائيل والزمر كل ليلة استناناً بالنبي– صلى الله عليه وسلم– ١٩١/٢، رقم:

هذا الحديث: دلالة على فضل قراءة سورة (الزمر)، إذ كان النبي –صلى الله عليه وسلم – يحافظ على قراءتها كل ليلة.

كما سماها ابن عباس (ت: ٦٨هـ) – رضي الله عنهما – بهذا الاسم في سياقه لما نزل بمكة[١]، وكذا عكرمة (ت: ١٠٥هـ)ان والحسن البصري[٢] (ت: ١١٠هـ) وهذا المشهور المستفيض في تسميتها بسورة (الزمر) في عهد النبي –صلى الله عليه وسلم–، والمرقوم في المصاحف، وكتب التفسير، ودواوين السنة، والمنقول عن الصحب الكرام، والتابعين الأخيار.

قال ابن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ): "سميت سورة (الزمر) من عهد النبي –صلى الله عليه وسلم– ... وإنما سميت سورة (الزمر)؛ لوقوع هذا اللفظ فيها دون غيرها من سور القرآن"[٣].

- وجاء في تسميتها: سورة (الغُرَف)[٤]، ووقع هذا اللفظ في قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [سورة الزمر: ٢٠].

(١١٦٣)، وابن السني في عمل اليوم والليلة، باب ما يستحب أن يقرأ في اليوم والليلة ٢/٧٧٤، رقم: (٦٨٠) – عُجالة الراغب المتمني، وصححه المحقق، والحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، تفسير سورة الزمر، ٢/٤٧٢، رقم: (٣٦٢٥)، والثعلبي في الكشف والبيان ٨/٢٢٠، والبيهقي في الجامع لشعب الإيمان ٥/٤٠٧، رقم: (٢٢٤٢)، والمزي في تهذيب الكمال ٢٧/٤١٣، وانظر: لمحات الأنوار ٢/٧٧٤، رقم: (١٠٠٤). والحديث إسناده صحيح، كما قاله الطرهوني في موسوعة فضائل سور وآيات القرآن – القسم الصحيح – ١/٣٣١، رقم: (١٠٧)، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢/٢٤٠، رقم: (٦٤١).

(١) أخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن، باب فيما نزل من القرآن بمكة، وما نزل بالمدينة، ص٣٣، رقم: (١٧)، والبيهقي في دلائل النبوة، باب ذكر السور التي نزلت بمكة والتي نزلت بالمدينة، ٧/١٤٣، وذكره السيوطي في الدر المنثور ١٢/٦٣٢، وزاد نسبته لابن مَرْدُوَيه، وانظر: زاد المسير ٧/٣.

(٢) أخرجه عنهما البيهقي في دلائل النبوة، باب ذكر السور التي نزلت بمكة والتي نزلت بالمدينة، ٧/١٤٣.

(٣) التحرير والتنوير ٢٣/٣١١، وانظر: تبصير الرحمن ٢/٢١٠، وأسماء سور القرآن ص٣٤٣، والمختصر في أسماء السور ص١٦٥.

(٤) الغُرَف: على وزن (فُعَل) جمع غُرْفَة، والغُرفةُ: عُلِّيَّة البناء. انظر: مقاييس اللغة ٤/٤١٨ (غرف)، ومفردات ألفاظ القرآن ص٦٠٥.

قال وهب بن منبه (ت: ١١٤هـ): "من أحبَّ أن يعرفَ قضاءَ الله عز وجل في خلقه، فليقرأ سورة (الغُرَف)"[١].

وقد ذكر هذه التسمية جلة من المفسرين[٢]، وهي من التسميات الاجتهادية.

- وانفرد البقاعي (ت: ٨٨٥هـ) -فيما وقفت عليه- بتسميتها سورة (تنزيل)[٣]، إذ افتتاحها واستهلالها بذلك دون ما عداها من السور القرآنية، وهو أيضاً اسم اجتهادي للسورة.

ثانياً: عدُّ آياتها:

سورة الزمر: اثنتان وسبعون آية في عد المكي والمدنيين والبصري، وثلاث وسبعون في عد الشامي، وخمس وسبعون في عد الكوفي.

واختلفوا فيها في سبعة مواضع:

١ - ﴿فِي مَا هُمۡ فِيهِ﴾ (٣) أسقطها الكوفي. ٢ - ﴿مُخۡلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ (١١) عده الكوفي والشامي.

٣ - ﴿مُخۡلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾ (١٤) عدّه الكوفي. ٤ - ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾ (١٧) أسقطها المكي والمدني الأول.

٥ - ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ (٢٠) عدّه المكي والمدني الأول.

٦ - ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ (٣٦) عدّه الكوفي.

٧ - ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ [٣٩] عدّه الكوفي[٤].

---

(١) انظر: معاني القرآن للزجاج ٤/٣٤٣، معاني القرآن للنحاس ٦/١٤٧، وتفسير القرآن للسمعاني ٤/٤٥٧، والجامع لأحكام القرآن ١٨/٢٤٥، وبصائر ذوي التمييز ١/٤٠٣.

(٢) انظر: معاني القرآن للزجاج ٤/٣٤٣، وتفسير القرآن للسمعاني ٤/٤٥٧، وغرائب التفسير ٢/١٠٠٩، والكشاف ٥/٢٨٦، ومجمع البيان ٨/٧٦٠، وزاد المسير ٧/٣، وجمال القراء ١/٢٠٠، والجامع لأحكام القرآن ٨/٢٤٥، وبصائر ذوي التمييز ١/٤٠٣، ونظم الدرر ٦/٤١٢، والإتقان ١/١٧٤، والزيادة والإحسان ١/٣٨٧، والفتوحات الإلهية ٣/٤٢٢، وروح المعاني ٢٣/٢٣٢، والقول الوجيز ص٢٧٥، ومراح لبيد ٢/٣٢٤.

(٣) انظر: نظم الدرر ٦/٤١٢.

(٤) انظر: البيان ص٢١٦، والكتاب الأوسط ص٥٠٠، وحسن المدد ص٣٤٧، والقول الوجيز ص٢٧٦، والمقصود بـ:

العدّ المكي: ما رواه أبو عمرو الداني بسنده عن عبد الله بن كثير، عن مجاهد بن جبر، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب.

ثالثاً: نزول السورة:

تقع سورة (الزمر) حسب ترتيب نزولها: (التاسعة والخمسون) بعد سورة (سبأ) وقبل سورة (غافر)[1]، وهي السورة (التاسعة والثلاثون) في ترتيب المصحف الشريف.

وهي من السور المكية في قول ابن عباسٍ[2] (ت: ٦٨هـ)، وعكرمة (ت: ١٠٥هـ)، والحسن البصري[3] (ت: ١١٠هـ)، وعطاء بن يسار[4] (ت: ١٠٣هـ)، وجابر بن زيد[5] (ت: ٩٣هـ)، وبه قال الجمهور[6]، وحكى ابن عطية المالكي (ت: ٥٤١هـ) الإجماع على مكيتها[7].

ومن أهل العلم من استثنى بعض آياتها، وجعلها في عداد المدني:[8]

والعد المدني :على ضربين :

الضرب الأول: عَدّ المدني الأول : وهو ما رواه نافع المدني عن أبي جعفر يزيد بن القعقاع ، وشيبة ابن نِصَاح، وهو ما يرويه أهل الكوفة عن أهل المدينة مرسلاً ، بدون تعيين أحدٍ منهم ، بمعنى أنه متى روى الكوفيون العدد عن أهل المدينة بدون نسبة أحدٍ منهم فهو عدد المدني الأول.

الضرب الثاني: عَدّ المدني الأخير: وهو ما رواه إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري ، عن سليمان ابن جُمّاز، عن أبي جعفر يزيد بن القعقاع ، وشيبة بن نِصَاح .

العدّ الكوفي: وهو ما رواه حمزة بن حبيب الزيّات ، عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبي عبدالرحمن السُّلمي، عن علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– .

العد الشامي : وهو ما رواه يحيى بن الحارث الذِّمَاري ، عن عبد الله بن عامر اليَحْصُبي ، عن أبي الدرداء – رضي الله عنه – وقيل : إن هذا العدد منسوب إلى عثمان بن عفان – رضي الله عنه – .

العد البصري: وهو ما رواه عاصم بن العَجَّاج الجَحْدَريّ. وعطاء بن يسار. وينسبه أهلُ البصرة بعد عاصم إلى أيوبَ بن المتوكل.

انظر : البيان ٦٨ ، والكتاب الأوسط ٤٧٥ ، وحسن المدد ١٦٧، وبصائر ذوي التمييز ١/ ٥٦٠ .

(١) انظر: فضائل القرآن لابن الضريس ص٣٤، والبيان ص١٣٦.

(٢) أخرجه عنه ابن الضريس في فضائل القرآن ص٣٣، وانظر: زاد المسير ٧/ ٣.

(٣) أخرجه عنهما البيهقي في دلائل النبوة، باب ذكر السور التي نزلت بمكة والتي نزلت بالمدينة ٧/ ١٤٢، وانظر: النكت والعيون ٥/ ١١٣، وزاد المسير ٧/ ٣، والجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٢٤٥.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان ٢٠/ ٢٢٥، وانظر: النكت والعيون ٥/ ١١٣.

(٥) انظر: النكت والعيون ٥/ ١١٣، وزاد المسير ٧/ ٣، والجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٢٤٥.

(٦) انظر: معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٤٧، وتفسير السمرقندي ٣/ ١٤٣، وتفسير كتاب الله للهواري ٤/ ٣١، وتفسير القرآن العزيز ٤/ ١٠٢، والبيان ص٢١٦، والكتاب الأوسط ص٤٦٠، والوسيط ٣/ ٥٦٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٥١٧، وأسباب النزول للعراقي ٢/ ٨٢٤، وفنون الأفنان ص٣٣٨، والتفسير الكبير ٩/ ٤١٨، وتفسير القرآن العظيم ٧/ ٣٠٢٧، ونظم الدرر ٦/ ٤١٢، والتحرير والتنوير ٢٣/ ٣١١.

(٧) انظر: المحرر الوجيز ٤/ ٥١٧.

(٨) انظر: الكشف والبيان ٨/ ٢٢٠، وتفسير القرآن للسمعاني ٤/ ٤٥٧، ومعالم التنزيل ٧/ ١٠٧، والكشاف ٥/ ٢٨٦، ولباب التأويل ٤/ ٥٠، والتسهيل ٣/ ١٩٠، وغرائب القرآن ٥/ ٦١٠، وبصائر ذوي التمييز ١/ ٤٠٣.

فقد ورد عن ابن عباسٍ (ت: ٦٨هـ): أنها نزلت بمكة سوى ثلاث آياتٍ منها نزلت بالمدينة في وحشي قاتل حمزة، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ إلى تمام الآيات الثلاث[سورة الزمر: ٥٣–٥٤][1]، وبه قال مقاتل[2].

وروي عنه أنه قال: إلا آيتين نزلتا بالمدينة، إحداهما: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [سورة الزمر: ٢٣] والأخرى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[3] [سورة الزمر:٥٣]

وقيل: المستثنى منها: قوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[4] [سورة الزمر: ٥٣] وقيل: أربع آياتٍ نزلت بالمدينة: وهي قوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾[سورة الزمر: ١٠]، والثلاث الباقية نزلت في وحشي بن حرب: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[5] [سورة الزمر: ٥٣ – ٥٥].

---

(١) أخرجه عنه النحاس في الناسخ والمنوسخ ٦٠٥/٢، وانظر: الزيادة والإحسان ٢٣٧/١.

(٢) تفسير مقاتل ١٢٦/٣.

(٣) انظر: النكت والعيون ١١٣/٥، وزاد المسير ٣/٧.

(٤) انظر: الكشف ٢٢٠/٨، والبرهان ٢٠٢/١.

(٥) ذكره السخاوي في جمال القراء ١٣٦/١، ونسبه صاحب البحر المحيط ٣٩٧/٧ لمقاتل، وانظر: زاد المسير ٣/٧، وروح المعاني ٢٣٢/٢٣.

وقيل: سبع آيات نزلت بالمدينة: من قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إلى قوله: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1] [سورة الزمر: ٥٣ – ٥٩].

هذه جملة الأقوال التي قيلت في مدنية بعض آياتها، ومكية السورة كلها أظهر لأمورٍ منها:

١– موضوعها كسائر السور المكية فيما انطوت عليه من تقرير التوحيد، وإخلاص الدين، وبيان عظمة تنزيل القرآن، والعناية بالوحدانية، وجانب الرسالة، وإثبات البعث، والجزاء، ومشاهد القيامة.

٢– ورود لفظ (الصور) فيها عند قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [سورة الزمر: ٦٨] وهو من ضوابط السور المكية، الدالة عليها[2].

٣– ورد عن ابن عباسٍ (ت: ٦٨هـ): أن ناساً من أهل الشرك، كانوا قد قتلوا وأكثروا، وزنَوا وأكثروا، فأتوا محمداً– صلى الله عليه وسلم– فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن. لو تخبرنا أنَّ لما عملنا كفارةً، فنزل ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ﴾ [سورة الفرقان: ٦٨]، ونزل: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾[سورة الزمر: ٥٣]"[3].

ورواية ابن عباس (ت: ٦٨هـ) صريحة السببية في نزول الآية الكريمة، وموافقة للسياق القرآني في الحديث عن المشركين، وقد أشارت الآية إلى عدم القنوط من رحمة

---

(١) انظر: النكت والعيون ٥/١١٣، وزاد المسير ٧/٣، وأحكام القرآن لابن الفرس ٣/٤٦٠، والجامع لأحكام القرآن ١٨/٢٤٥.

(٢) انظر: المكي والمدني ص٣٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[سورة الزمر: ٥٣]، ٤/١٨١١، رقم: (٤٥٣٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج، ١/١١٣، رقم: (١٩٣).

المولى الكريم، بسبب الإسراف على النفس بارتكاب المعاصي والذنوب، وهذا ينسجم مع ما ذكر في الحديث من سرفهم على أنفسهم بإفسادهم لعقيدتهم وشركهم، وانتهاكهم لحرمات الله بقتلهم النفس التي حرمها، ووقوعهم في فاحشة الزنا[1].

إذن فرواية ابن عباس (ت: ٦٨هـ) التي رواها الشيخان، أبانت أن الآية نزلت في المشركين وذلك قبل الهجرة، مما يعني مكيتها.

وقد صح عن ابن عباسٍ (ت: ٦٨هـ) أنه قال: "أنزلت هذه الآية في مشركي أهل مكة"[2].

٤- أن دعوى مدنية بعض آياتها متردد في أكثر من موضع، فهو غير منضبط، ولا تخلو من مقال، فعلى سبيل المثال: ما روي عن ابن عباسٍ من نزول قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[سورة الزمر: ٥٣] في وحشي قاتل حمزة، طريقها ضعيف لا يعول عليه[3]، ويناقش القول بمدنيتها بأن وحشي أسلم بعد ذلك بنحو عشرين سنة، ولكنه أتى النبي -صلى الله عليه وسلم-، وسأل عن توبةٍ له، فتلى عليه هذه الآية المكية المتقدمة النزول[4].

ولقد قرر ابن عاشور (١٣٩٣هـ) مكية سورة (الزمر) واستعرض ما ادعي من مدنية بعض آياتها، وضعَّف رواياتها، ولخص حالها بقوله: "وما نشأ القول بأنها مدنية إلا لما روي فيها من القصص الضعيفة... والمتجه: أنها كلها مكية، وأن ما يخيل أنه نزل في قصصٍ

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢٣/٣١١، وخصائص السورة والآيات المدنية، ص١٩٢، والمحرر ٢/٨٤٥.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في لباب النقول ص٢٢٣، وصحح إسناده السيوطي، وأخرج ابن وهب عن زيد بن أسلم: أنها في المشركين. انظر: الجامع تفسير القرآن ٢/٧٢، رقم: (١٣٨)، كما أخرجه عنه الطبري في جامع البيان ٢٠/٢٢٥، وصحح ابن عاشور في التحرير والتنوير ٢٣/٣١١، أنها نزلت في المشركين.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١١/١٥٧، رقم: (١١٤٨٠)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/١٦١: "رواه الطبراني في الأوسط، وفيه أبين بن سفيان، ضعفه الذهبي" ولم أقف عليه في المعجم الأوسط ؟!

(٤) انظر: أسباب النزول ٢/٨٢٩.

معينة إن صحت أسانيده، أن يكون وقع التمثيل به في تلك القصص، فاشتبه على بعض الرواة بأنه سبب نزول، وسيأتي عند قوله تعالى: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾[سورة الزمر: ١٠] أنها نزلت قبيل هجرة المؤمنين إلى الحبشة، أي: في سنة خمسٍ قبل الهجرة"[1].

رابعاً: مقصد السورة:

سورة (الزمر) من القسم المكي، وموضوعها كنمط سائر السور المكية التي عالجت قضايا العقيدة في أصولها الكبرى: توحيد الله تعالى، وإخلاص العبودية له دون غيره، وهدم الشرك، واتباع الوحي، وإثبات الرسالة، والبرهنة على حقيقة البعث، والحساب، والجزاء.

ويستبين للمتأمل في موضوعات السورة ملامح القرآن المكي في ثنايا آياتها.

أما مقصد السورة الأصيل، ومحورها الأساس الذي تدور حوله فهو: (الإخلاص لله تعالى)[2] في الأمور كلها، وتوجيه القصد إليه، وقد تنوع عرض ذلك بأساليب متعددة: من الأمر الصريح بإخلاص العبادة لله تعالى، والدعوة لإخلاص الدين له، والنهي عن ضده من الشرك والرياء، وضرب المثل لحال المخلص الموحد والمشرك المتحير، إلى غير ذلك من صور تقريره وتضمينه في سطوع بيانه.

وما ورود كلمة (الإخلاص) أربع مراتٍ في السورة الكريمة إلا دلالة جلية على أهميته البالغة، وتأكيد معناه، والعمل بمقتضاه، فبه النجاة، ونيل رضا الرحمن، والسلامة من النيران.

* * *

(١) التحرير والتنوير ٢٣/ ٣١١، وانظر: المصدر نفسه ٢٤/ ٤٠.

(٢) انظر: البرهان في تناسب سور القرآن ص١٥٥، وبصائر ذوي التمييز ١/ ٤٠٤، وأهداف كل سورة ص٣٢٧، وخواطر قرآنية ص٣٣٤.

المبحث الأول: تعريف الإخلاص لغةً واصطلاحاً:

التعريف اللغوي:

الإخلاص: من خَلَصَ يَخْلُصُ خُلُوصاً وخَلاصاً، وأخْلَصَ يُخلِصُ إخلاصاً، ومادة الكلمة ذات الحروف الثلاثة: (خَ لَ صَ) تدل على تنقية الشيء وتهذيبه[1].

والخالصُ كالصافي إلا أن الخالصَ ما زال عنه شوبُهُ بعد أن كان فيه، والصافي قد يُقال لما لا شوب فيه فهو أعم، يقال: خلّصْتُهُ فَخَلَص خُلوصاً[2].

(وذهبٌ خالصٌ) إذا كان سالماً عما يشوبه، وهذه (خلاصة السمن) أي: ما خلص منه، وهذا (ثوب خالص) إذا كان صافي البياض[3].

ومما سبق يتبين أن الدلالة اللغوية لكلمة (الإخلاص) دالة على السلامة والخلو من كل شائبةٍ تشوبه، وتؤثر على نقائه وصفائه.

التعريف الاصطلاحي:

في إبانة المقصود بـ(الإخلاص) وتحديد مفهومه ومدلوله، عدة معانٍ منها:

قول إبراهيم بن أدهم (ت: ١٦١هـ): "الإخلاص: صدق النية مع الله تعالى"[4] وعرَّفه سهل التُّسْتري (ت: ٢٨٣هـ) بأنه: "سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة"[5].

قال الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) معلقاً: "وهذه كلمة جامعة محيطة بالغرض"[6].

ويرى سعيد بن إسماعيل الحيري: (ت: ٢٩٨هـ) أن "الإخلاص: نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق فقط"[7].

---

(١) انظر: جواهر الألفاظ ٣٩٢، وتهذيب اللغة ١٣٧/٧ (خلص)، ومقاييس اللغة ٢٠٨/٢ (خلص)، والتعريفات ص٧٠.

(٢) انظر: مفردات ألفاظ القرآن ص ٢٩٢، وعمدة الحفاظ ٦٠٠/١.

(٣) انظر: الصحاح ٨١٤/١ (خلص)، والفروق اللغوية ص٢٣٣، وأساس البلاغة ٢٦٢/١ (خلص)، وغراس الأساس ص١٢٦.

(٤) انظر: إحياء علوم الدين ٣٣١/٤.

(٥) انظر: تفسير التستري ص١٣٣.

(٦) انظر: إحياء علوم الدين ٣٣١/٤.

(٧) انظر: المصدر السابق.

وقيل: "تصفية السر والقول والعمل"[1].

وذُكر أنه: "تصفية الأعمال من الكدورات"[2].

والمراد به عند الراغب الأصفهاني (ت: في حدود ٤٢٥هـ): "أن يقصد الإنسان بما يفعله وجه الله متعرياً عن الالتفات إلى غيره"[3].

وقال في موضعٍ آخرٍ: "التبري عن كل ما دون الله تعالى"[4].

أما عبد الكريم القشيري (ت: ٤٦٥هـ) ارتأى أن: "الإخلاص: إفراد الحق سبحانه في الطاعة بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله سبحانه دون شيءٍ آخر من تصنعٍ لمخلوقٍ أو اكتساب صفة حميدة عند الناس، أو محبة مدحٍ من الخلق، أو معنى من المعاني سوى التقرب به إلى الله تعالى"[5].

وعند أبي إسماعيل الهروي (ت: ٤٨١هـ): "الإخلاص: "تصفية العمل من كل شوب"[6].

وحدّه ابن عبد السلام (ت: ٦٦٠هـ) قائلاً: "الإخلاص: أن يفعل المكلف الطاعة خالصةً لله وحده، لا يريد بها تعظيماً من الناس ولا توقيراً، ولا جلب نفعٍ دنيوي، ولا دفع ضررٍ دنيوي"[7].

وعبَّر الجُرجاني (ت: ٨١٦هـ) عن تعريفه الاصطلاحي بقوله: "تخليص القلب عن شائبة الشوب المكدِّر لصفائه"[8].

وقال أيضاً: "الإخلاص: أن لا يطلب لعملك شاهداً غير الله"[9].

---

(١) انظر: الكليات ص٦٤.
(٢) انظر: التعريفات ص٧٠، وكشاف اصطلاحات الفنون ٢/٤٤.
(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص١٣٣.
(٤) مفردات ألفاظ القرآن، ص٢٩٢.
(٥) الرسالة القشيرية ص٢٠٩، وانظر: مدارج السالكين ٢/٩٩.
(٦) انظر: مدارج السالكين ٢/١٠٠.
(٧) قواعد الأحكام ١/٢٠٥.
(٨) التعريفات ص٧٠.
(٩) المصدر السابق.

وفي سياق تعريفه يقول أبو البقاء الكفوي (ت: ١٠٩٤هـ): "الإخلاص: هو القصدُ بالعبادةِ إلى أن يُعبَد المعبودُ وحده"[١].

وأختم بقول محمد الأمين الشنقيطي (ت: ١٣٩٣هـ) حيث قال: "والإخلاص: إفراد المعبود بالقصد، في كل ما أمر بالتقرب به إليه"[٢].

ومما تقدم عرضه من تعاريف الإخلاص، يرى المتأمل أن مدارها على قصد العمل لله وحده، دون مخالطة أي عملٍ دنيوي، وأحسنها تعريف محمد الأمين الشنقيطي (ت: ١٣٩٣هـ) رحمه الله.

إذن فالإخلاص: "قصد العمل لله وحده، دون شائبةٍ تشوبه".

* * *

(١) الكليات ص٦٤.

(٢) أضواء البيان ٧/٢٧.

المبحث الثاني

الأمر بإخلاص العبادة لله تعالى

أنعم الله على الخلق وتفضَّل عليهم، وأسبغ عليهم من كريم نواله، وجزيل عطائه، ووالى عليهم المنن، وأتم عليهم المنح، فهو الغني الحميد، ونحن الفقراء إليه، وقد بين الحق تبارك وتعالى الغاية من خلق البشر، ففي التنزيل: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [سورة الذاريات: ٥٦]، فهم مأمورون بإخلاص العبادة له، وتحقيق طاعته، فلا إله غيره، ولا معبود بحقٍ سواه.

وقد تبدَّى تقرير هذا الأمر بجلاءٍ في سورة (الزمر) على ضوء التناسب بينها وبين مقصود السورة التي ضمَّتها. وقد وجهت إلى إخلاص العبادة لله تعالى بأسلوب الأمر به في الآية الثانية منه، قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴾ [سورة الزمر: ٢] فهو أمر للنبي–صلى الله عليه وسلم – بعبادة الله وحده لا شريك له، وإخلاص الدين له، يعني: العبادة والطاعة[1]، ورأسها التوحيد[2] الذي هو حق الله على العبيد.

حقُّ الإلهِ عِبَادةٌ بالأمرِ لاَ ... بِهَوَى النُّفُوسِ فَذَاكَ للشَّيطانِ
من غيرِ إشراكٍ به شيئاً هُمَا ... سَبَبَا النَّجاةِ فَحَبَّذا السَّبَبَانِ[3]

وفي نعمة إنزالِ الكتاب المبين على سيد المرسلين، ما يقتضي أن يقابل شكرها بإخلاص الدين لله الواحد القهار.

وفي أمره–صلى الله عليه وسلم– بإخلاص العبادة لله تعالى مما شرع ظاهراً وباطناً، وتخليتها عما يشوبها، حمل له في توجيه أمته ودعوتهم إلى إفراد الله تعالى بالعبادة،

---

(١) انظر: النكت والعيون ٥ / ١١٤، والجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٢٤٦.

(٢) انظر: الأشباه والنظائر ص٣٣، وقاموس القرآن ص١٧٨، ووجوه القرآن ص١٣٥، ونزهة الأعين النواظر ص٢٩٧. يقول ابن عطية: "الدين هنا: يعم المعتقدات وأعمال الجوارح" المحرر الوجيز ٤ / ٥١٨.

(٣) القصيدة النونية ص١٧٨.

والإخلاص له، وتنزيهه عن الشبيه والشريك، ونسبة ما لا يليق بجلاله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[سورة الشورى: ١١].

يقول الإمام الطبري (ت: ٣١٠هـ) عند قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾[سورة الزمر: ٢]: "يقول تعالى ذكره: فاخشع لله يا محمد بالطاعة، وأخلص له الألوهة، وأفرده بالعبادة، ولا تجعل في عبادتك إياه شريكاً، كما تفعله عبدة الأوثان"(١).

كما أعلن النبي –صلى الله عليه وسلم– أمر الله عز وجل له بإخلاص العبادة له، فلا شرك، ولا وثنية، ولا إلحاد، بل عقيدة صحيحة صافية، سالمة من كل مؤثرٍ شركي أو بدعي، ينبوعها الإخلاص لله عز وجل ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾[الزمر: ١١].

وهذا دليل على أن تحقيق الإخلاص فرض عليه –صلى الله عليه وسلم– ، وعلى أمته(٢)، فالرسول الكريم –صلى الله عليه وسلم– ، رافع راية الوحدانية، مأمور بإخلاص العبادة بجميع أنواعها وأركانها لله تعالى، فهو المستحق للعبادة دون جميع خلقه، فلا شريك له ولا ند ولا نظير. ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾[سورة الزمر: ١١ –١٢] في إخلاصي لعبادة ربي، فهو عليه الصلاة والسلام أولهم في الإخلاص، وتوحيد الله، والانقياد والتسليم له في كل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه.

لقد كان خير الأنام –صلى الله عليه وسلم– داعياً وهادياً الخلق إلى ربهم، وكان أول من ائتمر أمر ربه بإخلاصه له في الأعمال كلها الظاهرة والباطنة(٣).

وقد "أمره الله بأن يبلغ الغاية القصوى في عبادة الله مخلصاً له الدين، فجعل وجوده متمحضاً للإخلاص على أي حالٍ كان، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى

---

(١) جامع البيان ٢٠/ ١٥٥.

(٢) انظر: نكت القرآن ٤/ ١٦.

(٣) انظر: غرائب التفسير ٢/ ١٠١١، وتيسير الكريم الرحمن ص٨٥١.

﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣] "[1].

وإذا كان ذلك كذلك، فإن ترك الإخلاص في عبادة الله وتوحيده، محادة لله، موعود فاعله بالعذاب الأليم ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة الزمر: ١٣] فالرسول الهادي البشير، يخبر بأنه على خطرٍ عظيم، وهول يومٍ عصيبٍ، إن ترك ما به صلاح الحال والمآل، وقوام الأمر كله، من الإخلاص لله في عبادته وطاعته وتوحيده، ونية التوجه إليه في كل الأعمال، وقد عصم الله جل وعزَّ رسوله –صلى الله عليه وسلم– من الوقوع في الشرك والكفر، فانتفى وقوع الخوف من الجزاء وأوجاله، المعلق بفعل الشرط: (العصيان)، فهو من التعليق الذي لم يوجد، بل هو معصوم –صلى الله عليه وسلم– من الشرك والكفر قبل بعثته، "وخطابه –صلى الله عليه وسلم– خطاب لأمته، يعمهم حكمه، ويحفهم وعيده"[2].

يقول البقاعي (ت: ٨٨٥هـ): "﴿قُلْ﴾: أي: لأمتك، ﴿إِنِّيَ أَخَافُ﴾: أي: مع تأمينه لي بغفران ما تقدم وما تأخر إخلاصاً في إجلاله وإعظامه، وفعلاً لما على العبد لمولاه الذي له جميع الكبرياء والعظمة، ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ أي: المحسن إليَّ المربي لي بكل جميلٍ، فتركت الإخلاص له ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وإذا كان اليوم عظيماً، فكيف يكون عذابه؟!"[3].

ثم أكد سيد ولد آدم أجمعين –صلى الله عليه وسلم– في تصريحه مرة أُخرى بإخلاص العبادة لله، وتحقيق التوحيد له ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [سورة الزمر: ١٤] فكمال العبودية لله العلي الكبير، وتمام الذل والخضوع له، فهو المتفرد بالعبادة دون

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/ ٣٥٨.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٤.

(٣) نظم الدرر ٤/ ٤٣١.

سواه، فلا شرك، ولا رياء، ولا سمعة، ولا انصراف عن الله إلى غيره أيٍّ كان، بل عبادة خالصة محضة، صحيحة المقصد، سالمة مما يشوبها ويفسدها.

إن الإخلاص جوهر القلب، وعماد العمل، وبه تصفو العقيدة، ويرسخ الإيمان، ويرتقي المرء في درجاته، ويسدد لكل خيرٍ وهدى.

يقول الألوسي (ت: ١٢٧٠هـ): "﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ ﴾: أمر ببيان كونه عليه الصلاة والسلام مأموراً بعبادته تعالى مخلصاً له الدين، وهذا أمر بالإخبار بامتثاله بالأمر على أبلغ وجهٍ وآكده، إظهاراً لتصلبه -صلى الله عليه وسلم- في الدين، وحسماً لأطماعهم الفارغة..."[1].

وفي وقفةٍ قرآنيةٍ من خلال هذه السورة، فيما يتصل بتقرير مبدأ إخلاص العبادة لله، والثناء على المخلص، يقول الحق تبارك وتعالى في مقام الإخلاص له: ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[سورة الزمر: ٩] هذه الآية بيان لحال القانت، أي: المخلص في عباد الله تعالى دائماً[2]. فهو في طاعة، وصدق لجأ، وحضور قلبٍ، خلا عن أعين الناس في هدأة

---

(١) روح المعاني ٢٣/٢٥٠.

(٢) انظر: نظم الدرر ٦/٤٢٧، وفي تعيين (القانت) في الآية عدة أقوال:

١. أنه رسول الله-صلى الله عليه وسلم- ، قاله يحيى بن سلاَّم. انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/٢٥٥، وتفسير مبهمات القرآن ٢/٤٣٧.

٢. أنه أبو بكرٍ، وصهيب، وابن مسعود، وأبو ذر -رضوان الله عليهم-. انظر: النكت والعيون ٥/١١٧، وزاد المسير ٧/٨، وغرر التبيان ص٤٥١، وتفسير مبهمات القرآن ٢/٤٣٧.

٣. أنه أبو بكر وعمر -رضي الله تعالى عنهما-. قاله ابن عباس -رضي الله عنهما- انظر: أسباب النزول والقصص الفرقانية ٢/٨٢٤.

٤. أنه عثمان بن عفان -رضي الله عنه-. قاله ابن عمر -رضي الله عنهما-، وقد أخرجه أبو نعم في حلية الأولياء ١/٥٦ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٩/٢٣١، وانظر: أسباب نزول القرآن ص٥٨٥، والتكملة والإتمام ص١٦٥، وتفسير مبهمات القرآن ٢/٤٣٧.

الليل؛ ليقوم لمولاه، ويطلب رضاه، ويسجل إخلاصه، في موقفٍ أقرب للقبول، وأبعد عن الرياء، قد جمع بين الخوف والرجاء، ففاز بعظيم الجزاء، فشتان بينه وبين حال من ضل الطريق، وتفرقت به السبل، وجعل لله نداً، وأشرك معه غيره؟! "لا يستويان؛ لأن المخلص عالم، والمشرك جاهل، لا يستويان؛ لأن الحامل على الإخلاص العلم، وعلى الإشراك الجهل وقلة العقل، ثم أنكِر على من يشك في ذلك فقل له: ﴿ هَلۡ يَسۡتَوِي ﴾ أي: في الرتبة ﴿ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ ﴾ أي: فيعملون على مقتضى العلم، فأداهم علمهم إلى التوحيد والإخلاص في الدين، ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾.."[1].

* * *

٥. أنه عمار بن ياسر، قاله ابن عباسٍ – رضي الله عنهما–، أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٧٧/٤٣، وعبد الله ابن عبيد بن عمير، أخرجه ابن سعدٍ في الطبقات الكبرى ١٨٩/٣، وانظر: غرر التبيان ص٤٥١. والقول بعموم الآية من غير تخصيصٍ بأعيانٍ مذكورين أولى، يقول الألوسي: "والظاهر أن المراد المتصف بذلك من غير تعيينٍ، ولا يمنع من ذلك نزولها فيمن علمت" روح المعاني ٢٤٧/٢٣، ورجح ابن عاشور تعميم من يصدق عليه هذا المعنى، وضعَّف الروايات الواردة بالتعيين، حيث قال بعد تعدادها: "وهي روايات ضعيفة، ولا جرم أن هؤلاء المعدودين هم من أحقِّ من تصدق عليه هذه الصلة، فهي شاملة لهم، ولكن محمل الموصول في الآية على تعميم كل من يصدق عليه معنى الصلة" التحرير والتنوير ٣٤٨/٢٣.

(١) انظر: نظم الدرر ٤٢٧/٦ بتصرفٍ يسيرٍ.

المبحث الثالث:

تجريد دين الله عما يضاد الإخلاص ويشوبه

تقدم تقرير السورة لمبدأ إخلاص العبادة لله بأسلوب الأمر به، فهو سبحانه الخلاَّق العليم، المالك لجميع الأمور، مصرف الكون، ومشرع الأحكام، المتصف بصفات الكمال، ونعوت الجمال، المتفرد بالعبادة دون سواه، واحد في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، لاندَّ له ولا شبيه، أمر خلقه بعبادته وطاعته، ولا يشركوا به شيئاً، فلا قبول ولا نفع ما لم يتحقق إخلاص العبادة لله، وما يتقرب إليه ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

فالإخلاص هو الركن الركين، والزمام المتين، وبالضد تتميز الأشياء، فالعبادة لا تكون عبادة إلا إذا كانت خالصة لله تعالى، غير مدخولةٍ بأي غرضٍ كان، مما يضاده ويشوبه، من الشرك بأنواعه وأقسامه[1] ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ

---

(١) ينقسم الشرك نوعين:

النوع الأول: الشرك الأكبر: وهو الذي يخرج من ملة الإسلام، ويخلد صاحبه في النار، إذا مات ولم يتب منه، وهو صرف شيءٍ من أنواع العبادة لغير لله، كدعاء غير الله، والتقرب بالذبائح والنذور لغير الله، من القبور والجنّ والشياطين.

النوع الثاني: الشرك الأصغر: وهو الذي لا يخرج عن ملة الإسلام، لكنه ينقص التوحيد، وهو وسيلة إلى الشرك الأكبر، وهو قسمان:

القسم الأول: شرك ظاهر على اللسان والجوارح، وهو ألفاظ وأفعال. فالألفاظ: كالحلف بغير الله، وقول ما شاء الله وشئت.

والأفعال: كلبس الحلقة والخيط لرفع البلاء، أو دفعه، ومثل تعليق التمائم خوفاً من العين وغيرها. إذا اعتقد أن هذه أسباب لرفع البلاء أو دفعه، فهذا شرك أصغر؛ لأن الله لم يجعل هذه أسباباً، أما إن اعتقد أنها تدفع البلاء أو ترفعه بنفسها، فهذا شرك أكبر؛ لأنه تعلق بغير الله.

القسم الثاني: الشرك الخفي: وهو الشرك في الإرادات والنيات، كالرياء، والسمعة، كأن يعمل عملاً مما يقترب به إلى الله، يريد ثناء الناس عليه.

انظر بتوسع: الاستقامة ٣٤٤/١، ومدارج السالكين ٣٨٨/١، وفتح المجيد ص٦٣، وعقيدة التوحيد ص٧٤، ونواقض الإيمان القولية والعملية ص١٣٥.

﴿أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾[سورة الزمر: ٣] استفتح ربنا ونبه بأداة التنبيه ﴿أَ لَا﴾ على أنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم، فله الدين[1] الكامل السالم من أدران الشرك والنفاق، وشوائب الرياء والإلحاد.

إن العبادة والطاعة مدار قبولها على الإخلاص، فيجب تصفية النية، وتكميل الإخلاص، وتحقيق التوحيد، وتصحيح الاعتقاد، فلا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له، فهو المرجو سبحانه بالقصد والطاعة، والفوز بالمرغوب، والنجاة من المرهوب، جلَّ عن الأنداد، وتنزه عن الصاحبة والأولاد، وتعالى وتقدّس عن مشابهة العباد.

إن الشرك أكبر الكبائر، وأعظم الظلم، وأشنع الحرمات ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[سورة النساء: ٤٨، ١١٦].

وإذا قصد العابد بعبادته مراءاة الناس من الأصل، فهذا مبطل للعبادة، أما إذا طرأ الرياء أو السمعة أثناء العبادة، فلا يخلو حال العبادة من أمرين:

الأول: أن يكون أولها مرتبطا بآخرها – كالصلاة مثلاً –، فتبطل جميع العبادة إذا لم يُدافع الرياء والسمعة وسكن إليهما.

الثاني: أن لا يكون أول العبادة مرتبطاً بآخرها – كالصدقة مثلاً بمئة ريال، خمسون منها دخله الرياء –، فيبطل منها ما خالطه الرياء والسمعة. انظر: فتاوى العقيدة لابن عثيمين، ص١٢٢.

(١) فُسر الدين بأنه:

١. شهادة أن لا إله إلا الله، وهو قول قتادة، أخرجه الطبري في جامع البيان ٢٠/١٥٦، وانظر: الكشف والبيان ٨/٢٢١.

٢. الإسلام، قاله الحسن البصري. انظر: النكت والعيون ٥/١١٤.

٣. الطاعة. انظر: المصدر السابق.

والأولى حمل الدين هنا على العموم، فيشمل كل المذكورات، ويدخل فيه المعتقد، وأعمال الجوارح، وشرائع الإسلام الظاهرة والباطنة.

وفي الحديث أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: "من لقي الله لا يشرك به شيئاً، دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به، دخل النار"[1].

لذا فإن من أعظم وجوه الدعوة وآكدها، تنزيه البارئ عن الشبيه والشريك ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ براءة من كل شرك بجميع أنواعه وصوره الجلية والخفية، كما قال صلى الله عليه وسلم– : "قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك. من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه"[2].

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ "دلالة على شرف الإخلاص بالعبادة"[3].

وقد أشعَّت لام المِلْك للاستحقاق في ﴿لِلَّهِ﴾ تعميق معنى خلوص الدين لله تعالى، فلا يحق الدين النقي الصافي من كل مظاهر الشرك وألوانه، إلا للمطلع على السرائر والضمائر.

وفي تقديم المسند سبك دقيق متين؛ للدلالة على الاختصاص، فالدين الخالص من كل تشريك يختص بالله وحده، فلا حظوظ دنيوية تشوبه، أو مطامع شخصية تخالطه، بل عبادة نقية من كل مؤثراتٍ شركية، أو لوثاتٍ عقديةٍ، فالتوجه إلى إيثار الله على كل ما سواه.

يقول علاّمة القصيم الشيخ عبد الرحمن السعدي (ت: ١٣٧٦هـ): ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾: هذا تقريرٌ للأمر بالإخلاص، وبيانُ أنَّه تعالى كما أنَّه له الكمال كلُّه وله التفضل على عباده من جميع الوجوه؛ فكذلك له الدينُ الخالصُ الصافي من جميع الشوائب؛ فهو الدين الذي ارتضاه لنفسه وارتضاه لصفوةِ خلقِهِ وأمَرَهُم به؛ لأنه متضمنٌ للتألُّه لله في حبه

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله –رضي الله عنه–، كتاب الإيمان، باب: من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات مشركاً دخل النار، ٩٤/١، رقم: (٩٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، من حديث أبي هريرة –رضي الله عنه–، كتاب الزهد والرقائق، باب: من أشرك في عمله غير الله، ٢٢٨٩/٤، رقم: (٢٩٨٥).

(٣) روح المعاني ٢٣٤/٢٣.

وخوفه ورجائِه، والإنابةِ إليه في عبوديَّته، والإنابة إليه في تحصيل مطالب عباده، وذلك الذي يُصْلِحُ القلوبَ ويزكِّيها ويطهِّرها، دون الشرك في شيء من العبادة، فإن الله بريء منه، وليس لله فيه شيء، فهو أغنى الشركاء عن الشرك، وهو مفسد للقلوب والأرواح، والدنيا والآخرة، مشقٍ للنفوس غاية الشقاء"[1].

وفي التحذير من الشرك المضاد للإخلاص، أس العبادة، وأصلها الأصيل، يقول تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [سورة الزمر: ٣].

فبين هنا أن طريق المشركين مذموم في نقضهم جناب التوحيد، وهدمهم الاعتقاد، بصرفهم العبادة لغير الله جل وعلا، فتاهوا في ضلالة عمياء، وجاهلية جهلاء، حيث جعلوا أنداداً وسطاء بينهم وبين الله تعالى، يستعينون بها في تحقيق منافعهم، وقضاء حوائجهم، وبلوغ آمالهم، ونيل رغباتهم؛ زعماً منهم أنها تشفع لهم عند الله، وتقربهم إليه زلفى؟!!

لقد كذّبهم الله تعالى، وسجل عليهم الكفر، وأبان حكمه في أهل الأديان، يوم الفصل والقضاء، فيدخل المخلصين الموحدين دار القرار، ويدخل المشركين الطغاة نار السعير.

قال –صلى الله عليه وسلم–: "أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله، خالصاً من قِبَل نفسه"[2].

يقول ابن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٨٤٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، من حديث أبي هريرة –رضي الله عنه–، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، ٥/٢٤٠٢، رقم: (٦٢٠١).

﴿يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [سورة الزمر: ٣]: "عطف على جملة ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ لزيادة تحقيق معنى الإخلاص له في العبادة، وأنه خلوص كامل لا يشوبه شيء من الإشراك، ولا إشراك الذين زعموا أنهم اتخذوا أولياء وعبدوهم حرصاً على القرب من الله يزعمونه عذراً لهم، فقولهم من فساد الوضع، وقلب حقيقة العبادة؛ بأن جعلوا عبادة غير الله وسيلة إلى القرب من الله، فنقضوا بهذه الوسيلة مقصدها، وتطلبوا القربة بما أبعدها، والوسيلة إذا أفضت إلى إبطال المقصد، كان التوسل بها ضرباً من العبث"(١).

وقد أخبر الله جل وعلا نفي شفاعة الأنداد لهم، التي لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً، فالشفاعة لله وحده اختص بها، فهو المتفرد بالملك والتقدير، والعطاء والمنع، له الأمر كله، وإليه يرجع الأمر كله، والشفاعة لمن ارتضاه الله تعالى وأذن له ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[سورة الزمر: ٤٣ – ٤٤].

لقد أمر الله جل شأنه نبيه بالرد على المشركين وتوبيخهم في دعوتهم له بعبادة غير الله تعالى، مما يضاد الإخلاص وينافيه، فقال: ﴿لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [سورة الزمر: ٦٣ – ٦٥].

فاستفهم منكراً عليهم مسلكهم لصرفه عن التوحيد إلى عبادة غير الله تعالى، وجعل شركاء له في العبودية، ودعوتهم الباطلة تلك عنوان جهلهم، وضلال عقولهم، وسوء مآلهم؛ لمنازعتهم حق الله على خلقه أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، فكيف يطلبون الإشراك به من إمام المخلصين، ورافع لواء الوحدانية، ومحطم كيان الوثنية،

(١) التحرير والتنوير ٢٣/٣٢٢.

لقد أطبق عليهم جهلهم، وحادوا عن طريق الاستقامة، ووقعوا في الضلالات والسفالات، فصاروا لا يفقهون شيئاً، فهم في أجهل جهل؛ لصرفهم العبادة – بأي مظهرٍ كان – لغير الله عز وجل، ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [سورة الزمر: ٦٥].

وهذا الخطاب للنبي –صلى الله عليه وسلم– وارد على سبيل الفرض، والتعليق على أمرٍ غير واقعٍ، من باب التهييج والإلهاب، والتثبيت على الحق، والحث على العبادة، وقطع أطماع المشركين عن أن يفتنوه، وبيان شناعة الشرك، وعظم ملابسته، إذن فالتعليق بالشرط هنا لا يدل على إمكان وقوع الشرط، و"النهي عن كل شيء، إن كان لمن تلبَّس به، فمعناه: تركه، وإن كان لغيره، فمعناه: الثبات على عدمه، وألا يصدر منه في المستقبل"(١).

﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ وهنا غرس لإخلاص العبادة لله تعالى، ونبذ كل معبود، وتنزيهه عن كل شريك، ومباينة للمشركين في دعوتهم الفاسدة، وعبادتهم الباطلة.

إن الإخلاص في عبادة الله وطاعته وتوحيده، والتوفيق للهداية، والبراءة من الشرك وأهله، من نعم الله الكبرى، ومننه العظمى، توجب الشكر له، بالقيام بأمره، وإخلاص الدين له.

يقول السعدي (ت: ١٣٧٦هـ) عند تفسير هذه الآية "﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ ﴾: لما أخبر أن الجاهلين يأمرونه بالشرك، وأخبر عنه شناعته، أمره بالإخلاص، فقال: ﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ ﴾، أي: أخلص له العبادة وحده لا شريك له، ﴿ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾: الله على توفيق الله تعالى؛ فكما أنه تعالى يُشكر على النعم الدنيوية، كصحة الجسم وعافيته، وحصول الرزق، وغير ذلك، كذلك يشكر ويثنى عليه بالنعم الدينية، كالتوفيق للإخلاص والتقوى، بل نعم الدين هي النعم على الحقيقة..."(٢).

---

(١) محاسن التأويل ٤/ ٢٨٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٨٦١.

المبحث الرابع:

رضا المولى الكريم عمَّن أخلص له الدين، وحُسن مآله

إن المرء في حياته ينشد السعادة، ويطلب مظانها، ويلتمس أسبابها، سعياً في هدوء النفس، وراحة البال، واستقرار الحال.

لكن السعادة الحقيقية، والشعور بالأمان، ما ابتغي فيه رضا الرحمن، بالإخلاص له في كل الأعمال، فهي طريق النجاة، وسبب الفلاح.

ورد عن ابن عباسٍ (ت: ٦٨هـ) – رضي الله عنهما – في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ ﴾ [سورة الزمر: ٧] أنه قال: "يعني: الكفار الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم، فيقولوا: لا إله إلا الله. ثم قال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ وهم عباده المخلصون الذين قال فيهم: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [سورة الحجر: ٤٢] فألزمهم شهادة أن لا إله إلا الله، وحببها إليهم"[1].

بيَّن ابن عباسٍ (ت: ٦٨هـ) هنا المقصود بقوله: ﴿لَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ فقال: "هم عباده المخلصون"، فالله عز وجل لا يرضى الكفر لعباده المخلصين؛ مما يدل عن رضاه عن المخلصين من عباده، الذين ألزمهم كلمة التقوى، فحققوا معناها، وعملوا بمقتضاها، فهؤلاء هم الناجون الفائزون الذين ارتضاهم، وليس للشيطان عليهم سبيل، فلفظ (عباده) وإن كان عاماً إلا أنه خاص في المعنى، وما ذكره ابن عباس (ت: ٦٨هـ) أحد قولي التفسير في معنى الآية الكريمة[2].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان ٢٠/١٦٨، والبيهقي في الأسماء والصفات ١/٣٩٧، رقم: (٣٢٣)، وضعفه محققه، وأورده السيوطي في الدر المنثور ١٢/٦٣٦، وزاد نسبته لابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) انظر: جامع البيان ٢٠/١٦٨، والكشف والبيان ٨/٢٢٢، والوسيط ٣/٥٧٢، ومعالم التنزيل ٧/١٠٩، والإكليل ٣/١١٥٠.

والقول الآخر: أن الله عز وجل لا يرضى لأحدٍ من عباده الكفر[1]، وإن وقع بإرادته الكونية القدرية[2].

وكلا القولين محتمل، والأقرب للصواب القول بالعموم، لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾[سورة البقرة: ٢٠٥]، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: ٥٦].

عن قتادة (ت: ١١٧هـ) قال: "والله ما رضي الله لعبده ضلالةً، ولا أمره بها، ولا دعا إليها، ولكن رضي لكم طاعته، وأمركم بها، ونهاكم عن معصيته"[3].

وصوَّب ابن جريرٍ الطبري (ت: ٣١٠هـ) القول بالعموم، حيث قال: "والصواب من القول في ذلك ما قال جلَّ ثناؤه ﴿إِن تَكْفُرُواْ﴾ بالله أيها الكفار به، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن إيمانكم وعبادتكم إياه، ﴿لَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ بمعنى: ولا يرضى لعباده أن يكفروا به، كما يقالُ: لستُ أحبُّ الظلم، وإن أحببت أن يظلم فلانٌ فلاناً فيعاقب"[4].

وفي التنويه بشأن المخلصين، ورضاه تعالى عنهم، ومحبته لهم؛ لإخلاصهم الدين، قال جلَّ ذكره: ﴿إِن تَشْكُرُ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾.

---

(١) انظر: جامع البيان ٢٠/١٦٩، والكشف والبيان ٤/٢٢٢، وتفسير القرآن للسمعاني ٤/٤٥٩، والمحرر الوجيز ٤/٥٢١، وزاد المسير ٧/٦، والجامع لأحكام القرآن ١٨/٢٥١، والجواهر الحسان ٣/٧٢.

(٢) مذهب أهل السنة والجماعة التفريق بين الإرادة والأمر، لأن الإرادة تنقسم قسمين:

أ- إرادة كونية: وهي القدرية التي يطلق عليها اسم (الإرادة).

ب- وإرادة شرعية، وهي الدينية، التي يطلق عليها اسم (الأمر).

وأهل السنة بناءً على هذا يقولون: إن الأمر لا يستلزم الإرادة، وإن الإرادة لا تستلزم الأمر، بل قد تقع الإرادة على خلاف الأمر.

فالمعاصي واقعة تبعاً للإرادة، خلافاً للأمر.

والطاعات واقعة تبعاً للأمر والإرادة جميعاً.

انظر: منهاج السنة ٣/١٨٠، ودرء تعارض العقل والنقل ٨/٤٦٩، وشفاء العليل ١/١٨٩.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٢/٦٣٦، وعزاه لعبد بن حميد.

(٤) جامع البيان ٢٠/١٦٩.

إن قيام العبد بفعل ما وجب عليه، مما يحبه الله تعالى ويرتضيه، فقد أمر بإخلاص الدين له، من توحيده وطاعته وعبادته، والتزام شرعه المطهَّر ظاهراً وباطناً، ورتب على ذلك الجزاء الأوفى، والدرجات العُلى، فيُحل عليهم رضوانه، ويتولاهم بألطافه، ويغمرهم برحمته وإحسانه إذا أخلصوا في قصدهم وإرادتهم، ونبذوا كل مظاهر الشرك، وتبرأوا من التعلق بغير ربهم خالقهم ومالكهم.

يقول السعدي (ت: ١٣٧٦هـ): "﴿وَإِن تَشْكُرُوا﴾: لله تعالى بتوحيده وإخلاص الدين له ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾: لرحمته بكم ومحبته للإحسان عليكم؛ ولفعلكم ما خلقكم لأجله"[١].

ومآل المخلصين السعداء في جنات النعيم، فهم في زمرة المتقين، ممن اتقاه تقوى قومٍ مخلصين، يساقون سوق إعزازٍ وتكريمٍ جماعات ووفوداً بتفاوت رتبهم وفضلهم، وهم في فرحٍ وسرورٍ بإخوانهم وسيرهم معهم، وكل زمرةٍ اشتركت في عملٍ تصاحبت على حدةٍ، كما كانوا في الدنيا وقت اجتماعهم على الخير، فيؤنس بعضهم بعضاً، ومأواهم جميعاً إلى جنات الخلد يتنعمون فيها[٢]﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[سورة الزمر: ٧٣].

يقول الإمام الطبري (ت: ٣١٠هـ): "يقول تعالى ذكره: وحشر الذين اتقوا ربهم بأداء فرائضه واجتناب معاصيه في الدنيا، وأخلصوا له في الألوهة، وأفردوا له العبادة، فلم يشركوا في عبادتهم إياه شيئاً ﴿إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾. يعني: جماعات"[٣].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٨٥٠، وانظر: نظم الدرر ٦/ ٤٢٤.

(٢) انظر: حادي الأرواح ص٣١، وصفة الجنة ص٢١٧.

(٣) جامع البيان ٢٠/ ٢٦٥.

المبحث الخامس:

إجابة دعاء المخلص المشرك حال الضراء

الدعاء من أشرف العبادات، وأجلِّ القربات، وأرفعها مرتبة، وأقربها إلى الله منزلة؛ به تفرج الكربات، وتغاث اللهفات، وتستنزل البركات، ويستدفع البلاء، "وليس شيءٌ أكرمَ على الله من الدعاء"[1]، و"من لم يسأل الله يغضب عليه"[2].

فالدعاء لب الدين، وروح العبادة، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١٨٦]، ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[سورة غافر: ٦٠].

فمن استعان بالله ودعاه، كفاه همَّه، ويسَّر أمره، وقضى حاجته، وأعطاه سؤله.

إن إخلاص الدعاء لله عز وجل، وحضور القلب، والتضرع إليه، وصدق اللجأ، وإظهار الحاجة، من أعظم أسباب إجابة الدعاء، وآكدها وأولها، فمن أخلص لربه، وصدقت نيته، وصح قصده، كان بالإجابة أولى وأحرى.

فمن أعظم دواعي الإجابة المعقودة به: اشتداد الإخلاص لله عند الدعاء. ذكر ابن عقيلٍ الحنبلي (ت: ٥١٣هـ) أنه "يقال: لا يستجاب الدعاء بسرعةٍ إلا لمخلصٍ أو مظلومٍ"[3].

---

(١) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح، كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء، ٥/٤٢٥، رقم: (٣٣٧٠)، وابن ماجه في السنن، كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء ٢/١٢٥٨، رقم: (٣٨٢٩). وأحمد في مسنده ١٤/٣٦٠، رقم: (٨٧٤٨)، والبخاري في الأدب المفرد، باب فضل الدعاء ١/٣٧٦، رقم: (٧١٢)، والقضاعي في مسند الشهاب ٢/٢١٤، رقم: (١٢١٣)، كلهم من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – مرفوعاً. وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٢/٩٥١، رقم: (٥٣٩٢).

(٢) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح، كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء ٥/٤٢٦، رقم: (٣٣٧٣)، وابن ماجه في السنن، كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء ٢/١٢٥٨، رقم: (٣٨٢٧)، وأحمد في مسنده ١٥/٤٣٨، رقم: (٩٧٠١)، والبخاري في الأدب المفرد، باب من لم يسأل الله يغضب عليه ١/٣٤٤، رقم: (٦٥٨)، والمزي في تهذيب الكمال ١٣/٤١٨، كلهم من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – مرفوعاً، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، القسم الأول من المجلد ٦/٣٢٣، رقم: (٢٦٥٤).

(٣) الفنون ٢/٧٥٠.

فحري لمن أخلص في ابتهاله، وانطرح بين يدي مولاه، ولاذ به، وبثَّ همَّه، وتوجه بالشكوى إليه، أن لا يخيب رجاه، ويحقق مناه.

لقد تكفل الله تعالى بإجابة المضطر من مس الضر، ولو كان مشركاً، حال إخلاصه في دعائه، وتذلله لربه، وتعلقه به، وإظهاره لافتقاره ومسكنته بين يديه، "والسبب في ذلك: أن الضرورة إليه باللَّجأ، ينشأ عن الإخلاص، وقطع القلب عما سواه؛ وللإخلاص عنده سبحانه موقع وذمَّة، وجد من مؤمنٍ أو كافرٍ، طائعٍ أو فاجرٍ"[1].

فالله عز وجل يجيب المضطر المكروب؛ لموقع إخلاصه حال اضطراره، يقول أصدق القائلين: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [سورة الزمر:٨].

والإنسان هنا: المقصود به المشرك[2] المتناقض في موقفه حال الضراء والنعماء، فعند اشتداد الكرب، ومعاناة الهلع، واستحكام المحنة، وتطويق الأزمة، وتمكن البلوى به من مرضٍ أو فقرٍ أو رعبٍ، فإنه يسرع فزعاً إلى ربه، ملتجأً بحماه، مخلصاً في دعائه، ملحاً في رجائه؛ لكشف المرهوب، ورفع ما نزل به من المجهود، ثم إذا منَّ الله عليه بنعمة الخَلَاصِ بالإخلاص، وأصبح في حالة الرخاء؛ نسي من عمَّه برحمته، وما كان قد

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٦/١٩٣.

(٢) التعريف في الإنسان بـ(أل) الجنسية عموم في فئةٍ من الإنسان، وهم أهل الشرك خاصة؛ بقرينة السياق في قوله تعالى:﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ وهذا لا يتفق مع حال أهل الإيمان الذين أخلصوا في عبادة الرحمن. انظر: المحرر الوجيز ٤/٥٢١، والتسهيل ٣/١٩٢، والتحرير والتنوير ٢٣/٣٤٢.

هذا وقد ذكر بعض المفسرين أنها نزلت في معينٍ:

١. أنه عتبة بن ربيعة، قاله عطاء. انظر: زاد المسير ٧/٦، وغرر التبيان ص٤٥١، والبحر المحيط ٧/٤٠١.

٢. أنه حذيفة بن المغيرة بن عبد الله المخزومي، قاله مقاتل في تفسيره ٣/١٢٨، وانظر: غرر التبيان ص٤٥١، والقول بعموم اللفظ أظهر، ويدخل من ذكر تعيينه في جملتهم. انظر: البحر المحيط ٧/٤٠١، والتحرير والتنوير ٢٣/٣٤٢.

وقر في قلبه من الإخلاص في تضرعه ودعائه، ثم جعل لمولي النعم، وصارف النقم، ومزيل إلهمٍّ، وكاشِف الغمٍّ، أنداداً وشركاء يعبدهم من دون الله عز وجل؟!

فضلَّ بعبادتها، وحاد عن النهج القويم، والصراط المستقيم، وأضل غيره بصدهم عن توحيده واتباع شرعه، فحق عليه الوعيد والتهديد، بالعقاب الشديد، ومقاساة حر الجحيم، فإن ما مُدَّ به من العطاء المؤقت، وما أقام عليه من الكفر مدة عمره، إنما هو تمتيع قليل، عاد وباله عليه، وأورثه النار، وبئس المصير.

لقد سلَّط البيان القرآني الضوء هنا على عظم أمر الإخلاص في إجابة الدعاء، وحصول الرغائب، ودفع المصائب، فالكافر المشرك إذا أخلص في دعائه، وتملَّق بين يدي ربه؛ تجاب دعوته، وتقال عثرته، وتقضى حاجته؛ بفضل الله ورحمته.

ورد عن الضحاك (ت: ١٠٥هـ) عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ قال: "مخلصاً إليه"[١].

وقال الثعلبي (ت: ٤٢٧هـ): "مخلصاً، راجعاً إليه، مستغيثاً به"[٢].

وقال ابن أبي زمنين (ت: ٣٩٩هـ): "أي: دعاه بالإخلاص أن يكشف عنه"[٣] وقد بيَّن الحق تبارك وتعالى أن المشركين يفزعون إليه عند الشدائد والضوائق بإخلاص الدعاء له، لتخليصهم من كربهم وشدتهم، فإذا أمَّن خوفهم، وأزاح عللهم، أعرضوا عن إخلاص الدين له، وأشركوا معه غيره، قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٦٥ – ٦٦]، وقال جل وعلا: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا﴾ [سورة الإسراء: ٦٧].

---

(١) انظر: النكت والعيون ٥/ ١١٦.

(٢) الكشف والبيان ٨/ ٢٢٢.

(٣) تفسير القرآن العزيز ٤/ ١٠٤، وانظر: تفسير كتاب الله للهواري ٤/ ٣٣.

المبحث السادس:

ضرب المثل على إخلاص التوحيد لله، ونفي الشريك معه

تتجلى العظمة القرآنية في أسلوب بيانه، وإعجاز معناه، وسمو مقاصده، وشمول تشريعه، فهو المعجزة الخالدة، والحجة الباقية، على مرّ العصور والدهور. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[سورة فصلت: ٤١ – ٤٢].

لقد عني البيان القرآني بإيراد الأمثلة، من خلال نقل المعنوي إلى المحسوس، وتقريب تصويره للأذهان؛ حتى يقع في النفس موقعاً عظيماً، ويؤثر في القلب تأثيراً بالغاً، فيصيب الغرض من عرضه، ويحقق الهدف من سوقه، في سمو بيانٍ، ودقة معنى، وعمق دلالة.

وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ) لتلك المضامين، حيث قال: "فإن من أعظم كمال القرآن تركه في أمثاله المضروبة وأقيسته المنصوبة لذكر المقدمة الجلية الواضحة المعلومة، ثم اتباع ذلك بالإخبار عن النتيجة التي قد علم من أول الكلام أنها هي المقصود؛ بل إنما يكون ضرب المثل بذكر ما يستفاد ذكره، وينتفع بمعرفته، فذلك هو البيان، وهو البرهان، وأما ما لا حاجة إلى ذكره فذكره عي"[1].

لقد لفتت الأمثال القرآنية الأنظار إلى التأمل والتذكر، والتفكر والتدبر، في بلاغة نظمه، وأسرار تصويره، وخصائص تركيبه، ودقائق عبره، ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[سورة الزمر: ٢٧].

كما تنوع ضرب الأمثال في الذكر الحكيم؛ إن أمراً بإخلاص التوحيد لله، ونبذ الشرك وهدمه، وتقرير أصول الاعتقاد، وإن ترغيباً وتحفيزاً لفعل الطاعات، وزجراً وتنفيراً من فعل السيئات، وإن تشويقاً لنعيم الجنان بتحقيق الموجبات... وهكذا من ضروب أمثلته المصوّرة، ومعانيه الآسرة، وبراهينه المقنعة، عظة وتذكيراً للعباد، وإقامة للحجة

(١) مجموع الفتاوى ٦٢/١٤.

عليهم، فتزيد أهل الإيمان إيماناً، وتكون سبباً في اهتداء من اتعظ به، ولم يكابر ويعاند، فالقرآن الكريم وما اشتمل عليه من ذكر الأمثال، كلام رب العالمين؛ المعجز في لفظه ومعناه، ليس فيه خلل ولا تناقض ولا تضاد، فأخباره صدق، وأوامره ونواهيه عدل، لا عبث فيها ولا ظلم، ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[سورة الزمر: ٢٨].

يقول الحافظ ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ): "وقوله: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾، أي: هو قرآن بلسان عربي مبين، لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس، بل هو بيان ووضوح وبرهان، وإنما جعله الله كذلك، وأنزله بذلك، ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾، أي: يحذرون ما فيه من الوعيد، ويعملون بما فيه من الوعد"(١).

وفي التوجيه إلى الأمر بإخلاص التوحيد لله، ونفي الشريك معه، بأسلوب ضرب المثل القرآني، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[سورة الزمر: ٢٩].

لقد سلكت الآية الكريمة هنا مسلك الاستدلال على إثبات إخلاص التوحيد لله العلي العظيم، ونفي الشريك معه، بضرب شاهدٍ من الأمثال العقلية، الفائق في تصويره وتصريفه؛ لتقرير هذا الأصل العقدي، حيث ضرب الله تعالى المثل للمشرك المتحيِّر، والمخلص الموحِّد، فشبه المشرك الذي يعبد آلهة شتى في تحيره وتشتته، واضطراب أمره، وضلال سعيه، وشدة تعبه، وعدم انتفاعه بعمله، بحال عبدٍ مملوكٍ لجماعةٍ كثيرةٍ، سيئة أخلاقهم وأمزجتهم، مختلفة طباعهم ومقاصدهم، متباينة آراؤهم وحاجاتهم، فهم متنازعون ومتخاصمون ما لهم من قرار، فأنى للعبد الكليل أن يُلبي ما يرغبون ويطلبون، مع تزاحم الحقوق في رقبته، وشدة عنائه وتعبه، وكدِّ فكره، وكدر حاله، وتفرق قلبه؟!

(١) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٣٠٣٧.

وفي المقابل: شبه المخلص الموحد، الذي يعبد الله وحده لا شريك له، بحال عبدٍ مملوك لمالكٍ واحدٍ، لا يشاركه فيه غيره، فهو ينفذ ما يطلب منه، ويعمل بمقتضى أمره، دون تشتتٍ ولا حيرةٍ، فكما أن حال العبدين المملوكين لا يستويان، فكذا المخلص الموحد، والمشرك المتحير، لا يستويان صفة، وحالاً، ومآلاً.

تَشَاكَسَ القومُ إذا تعاسروا والخُلْف بين الشركاء يكثرُ
وسالِماً لرجلٍ أي: خالصاً يملكه مُكمَّلاً لا ناقصا[1]

ولما كان المثل من الظهور والجلاء، والتألق في تيك المعاني والدلالات، أعقبه بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فهو المحمود بالكمال محبة وتعظيماً، المستحق للثناء على الإنعام والإحسان، أقام الحجة، وأبان الحق؛ فحمد العاقبة من لربه أخلص ووحَّد، وضُرب له مثل الخير، وأكثر الناس لجهلهم، وضلال عقولهم، لا ينتفعون بهذا المثل، فيصرون على الشرك، ويقيمون عليه، فلهم مثل السوء.

"وهذا من أبلغ الأمثال، فإن الخالص لمالكٍ واحدٍ يستحق من معونته وإحسانه، والتفاته إليه، وقيامه بمصالحه، ما لا يستحقه صاحب الشركاء المتشاكسين. الحمد لله، بل أكثرهم لا يعلمون"[2].

يقول برهان الدين البقاعي (ت: ٨٨٥هـ): "﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ﴾ أي: الملك الأعظم المتفرد بصفات الكمال ﴿مَثَلًا﴾ لهذين الرجلين، مع أنه لا يشك ذو عقل أن المشرك لا يداني المخلص"[3] ﴿رَّجُلًا﴾ أي: "عبداً. ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾: فهم كثيرون، وليسوا متفقين على أمرٍ من الأمور وحالةٍ من الحالات حتى تُمْكِنَ راحتُه، بل هم متشاكسونَ

(١)قاله ابن المنير في التيسير العجيب ص١٥٧، وانظر: التيسير ص٢٢٥، وتفسير غريب القرآن لابن الملقن ص٣٤٢، والتبيان ص٣٦٣.
(٢) أعلام الموقعين ١/ ١٧٥.
(٣) نظم الدرر ٦/ ٤٣٤.

متنازعون فيه، كلٌ له مطلبٌ يريد تنفيذَه ويريد الآخرُ غيرَه، فما تظنُّ حال هذا الرجل مع هؤلاء الشركاء المتشاكسين؟! ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ ؛ أي: خالصاً له قد عَرَفَ مقصودَ سيِّدِهِ، وحصلتْ له الراحةُ التامةُ. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ ؛ أي: هذان الرجلان ﴿مَثَلًا﴾ ؟ لا يستويان. كذلك المشركُ فيه شركاء متشاكسون، يدعو هذا ثم يدعو هذا، فتراه لا يستقر له قرار، ولا يطمئن قلبه في موضع، والموحد مخلص لربه، قد خلَّصه الله من الشركة لغيره فهو في أتمِّ راحة، وأكمل طمأنينةٍ فـ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: على تبيين الحق من الباطل، وإرشاد الجهَّال. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾"[1]

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٨٥٤، وانظر: جامع البيان ١٩٦/٢٠، وتفسير القرآن للسمعاني ٤٦٨/٤، وقانون التأويل ص٢٦٩ والمحرر الوجيز ٥٢٩/٤، وزاد المسير ١٦/٧، والإشارات الإلهية ١٨٩/٣، وأعلام الموقعين ١٥٧/١، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣٠٢٧/٧، ومحاسن التأويل ١١٩/٦، وضرب الأمثال في القرآن ص٦٩، والأمثال القرآنية ١٥٨/١، والقياس في القرآن ص٣١٦، والأمثال في القرآن ص٢١٤.

المبحث السابع:

الإخلاص في التوبة والعمل

قد تزل بالإنسان قدمه، ويقع في المخالفة، وينهمك في المعصية، ويقصَّر في التزام أحكام الملة؛ مما يعود بالأثر السلبي عليه في قلبه وبدنه، فالمعاصي والآثام، شر داءٍ، وأعظم بلاءٍ في الدنيا والآخرة.

وعند الانكباب في لجج الذنوب، والانسياق لداعي الهوى، وغشيان مهاوي الردى، تعيش النفس الإنسانية حالة صراعٍ مريرٍ، وشعورٍ حسيرٍ، وضيقٍ في الصدر، وتأنيبٍ للضمير.... وفي ظل هذه الضوائق الخانقة، والانحباسات المتأزمة، تنبجس بوارق الأمل والرجاء، وتنبث روح الأمن والأمان؛ بفتح أبواب التوبة للعباد، من الملك الكريم، العليم الحكيم، اللطيف الخبير، مقيل العثرات، وغافر الزلَّات، وقابل التوب.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة الزمر: ٥٣]. وهذه الآية الكريمة أرجى آية[1]، وأكثر آية في القرآن فرجاً[2].

---

(١) ذكر السيوطي في الإتقان ٢/ ١١٤٤ أنه اختلف في أرجى آية في القرآن الكريم على بضعة عشر قولاً، وصدَّر القول الأول بذكر آية الزمر، وانظر: الفوائد الجميلة ص٤٠٢.

وذكر الشوكاني أن هذه الآية أرجى آية في كتاب الله سبحانه؛ لاشتمالها على أعظم بشارة، فإنه أولاً أضاف العباد إلى نفسه؛ لقصد تشريفهم، ومزيد تبشيرهم، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي، والاستكثار من الذنوب، ثم عقب ذلك بالنهي عن القنوط من الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب، فالنهي عن القنوط للمذنبين غير المسرفين من باب الأولى، وبفحوى الخطاب، ثم جاء بما لا يبقى بعده شك، ولا يتخالج القلب عند سماعه ظن، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾ فالألف واللام قد صيرت الجمع الذي دخلت عليه للجنس الذي يستلزم استغراق أفراده، فهو في قوة إن الله يغفر كل ذنبٍ كائناً ما كان إلا ما أخرجه النص القرآني وهو الشرك، ثم لم يكتف بما أخبر عباده من مغفرة كل ذنب، بل أكد ذلك بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ فيالها من بشارة ترتاح لها قلوب المؤمنين المحسنين ظنهم بربهم، الصادقين في رجائه، الخالعين لثياب القنوط، الرافضين لسوء الظن بمن لا يتعاظمه ذنب، ولا يبخل بمغفرته ورحمته على عباده المتوجهين إليه في طلب العفو، الملتجئين به في مغفرة ذنوبهم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾. انظر: فتح القدير ٤/ ٤٧٠.

(٢) عن مسروق وشُتَيْر بن شَكَل العبسي قال: "جلسنا في المسجد فثار إليهما الناس فقال أحدهما لصاحبه: إنهم لم يقوموا إلينا إلا لنحدثهم، فإما تحدثهم وأصدقك، وإما أن أحدثهم وتصدقني، فقال

نداء كريم، وبشرى جليلة، ووعد صادق، من البرِّ الرحيم، للإقبال عليه، والأوبة إليه، والطمع في مغفرته ورضوانه، فمهما عظمت الذنوب، وكثرت الخطايا، وثقلت بالإنسان العظائم، فإن الله الغفور التواب، يمحوها ويكفِّرها، حتى الكفر والشرك، أعظم الجرائم، وأكبر القواصم، ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾[سورة الأنفال: ٣٨]، وقال عز ذكره، وتعالى شأنه في المُثلِّثة: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[سورة المائدة: ٧٣]، ثم دعاهم إلى التوبة والإنابة: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[سورة المائدة: ٧٤].

لقد فتح الله باب التوبة، وعرضها على عباده؛ ليتوب على من تاب، واعترف بذنبه وتقصيره، وندِم على فعلته، وأقلع عنها، ولم يصر عليها، ثم أتبع السيئة الحسنة، فما أوسع رحمة الله تعالى ومغرفته، يذنب العبد ويسيء، فيستغفر ويتوب، فيغفر له ويتوب عليه.

أحدهما: سمعت عبد الله يقول: أعظم آية في القرآن آية الكرسي، قال الآخر: صدقتَ، قال الآخر: سمعتُ عبد الله يقول: أجمع آية في القرآن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾[سورة النحل: ٩٠]، قال: صدقت، قال: وسمعته يقول: أشد آية في القرآن تفويضاً ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴾ [سورة الطلاق: ٢]، قال: صدقت، قال الآخر: وسمعته يقول أكثر آية في القرآن فرجاً ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ [سورة الزمر: ٥٣] قال: صدقت.

أخرجه عبد الرزاق في المصنف، كتاب فضائل القرآن، باب تعليم القرآن وفضله، ٣٧٠/٣، رقم: (٦٠٠٢)، والبخاري في الأدب المفرد، باب الظلم ظلمات، ٢٤٦/١، رقم: (٤٨٩)، والطبراني في المعجم الكبير ١٣٢/٩، رقم: (٨٦٥٨)، والمستغفري في فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل آيات من آي القرآن خصوصاً فيها خصال حميدة، مطلب آيات فيها تفويض وفرج، ٧٦٢/٢، رقم: (١١٥٣)، وصححه محققه، والبيهقي في الجامع لشعب الإيمان، فصل في فضائل السور والآيات، تخصيص آية الكرسي بالذكر، ٣٢٨/٥، رقم: (٢١٧٣)، وقال محققه: "إسناده: رجاله ثقات".

قال الهيثمي: "رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح" مجمع الزوائد ٢٧/٧، ١٩٢.

يقول الحافظ ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ): "هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها، ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زَبَد البحر. ولا يصح حمل هذه على غير توبةٍ؛ لأن الشرك لا يغفر ما لم يتب منه"[١].

إن التوبة المُخلِّصة من الذنب، والمصلحة لما فات، ما كانت خالصة صادقة، فلابد من ملابسة الإخلاص عند الرجوع إليه، والنية القلبية الخالصة بعدم الرجعة إلى المعصية، والانكفاف عنها، وباكتمال شرائط التوبة، وانتفاء موانعها، يتحقق المقصود، ويظفر بالمطلوب.

يقول العلاّمة ابن القيم (ت: ٧٥١هـ): "النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

الأول: تعميمُ جميع الذنوب واستغراقها بها...

والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها...

والثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله و خشيته، والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده"[٢].

﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [سورة الزمر: ٥٤].

يقول القرطبي: (ت: ٦٧١هـ): "والإنابة: الرجوع إلى الله بالإخلاص"[٣].

كما أمر الله تعالى بإخلاص العمل له، فتكون العبادة الخالصة له وحده دون سواه، وتكون الطاعة الخالصة له، بالإخبات، والانقياد لأوامره، واجتناب نواهيه، فالدين الخالص

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٣٠٤٥.

(٢) مدارج السالكين ١/ ٣٠٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٢٩٧، وانظر: تفسير كتاب الله للهواري ٤/ ٤٥، وتفسير القرآن العزيز ٤/ ١١٧.

للإله الحق سبحانه، أحق من يعبد ويخشى، ويقصد ويرجى، يطاع فيشكر، ويعصى فيغفر[1].

ويحذر المولى عز وجل عباده من مخالفة أمره، وارتكاب معصيته، أن يحِلَّ بهم العقاب، فلا دافع له، ولا ناصر لهم، وكفى به تهديداً ووعيداً.

يقول الشيخ السعدي (ت: ١٣٧٦هـ) في إشارةٍ لطيفةٍ، ولفتةٍ بديعةٍ، عند قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾: "﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾: بقلوبكم، ﴿وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾: بجوارحكم، إذا أُفردت الإنابة، دخلت فيها أعمال الجوارح، وإذا جمع بينهما كما في هذا الموضع، كان المعنى ما ذكرنا. وفي قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾: دليلٌ على الإخلاص، وأنه من دون إخلاص لا تفيدُ الأعمال الظاهرة والباطنة شيئاً"[2].

* * *

(١) انظر: جامع البيان ٢٠/٢٣١، وتفسير القرآن للسمعاني ٤/٤٧٦، ومعالم التنزيل ٧/١٢٨، وزاد المسير ٧/٢٣، ومجمع البيان ٨/٧٨٥، ولباب التأويل ٤/٦٢، وروح المعاني ٢٤/١٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٨٥٩.

المبحث الثامن:

عظمة الله في خلقه دافعة للإخلاص له

خلق الله كلَّ شيءٍ ودبَّره، وأحكمه وأتقنه، وأبدع خلق الإنسان وصوره، وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة، وأفاض عليهم من فيوض رحمته، وربَّاهم بنعمته، وأرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، ونصب الأدلة والشواهد والآثار على وحدانيته، وكمال ربوبيته، وقدرته الإلهية في الأنفس والآفاق، من خلق الإنسان، وخلق السموات والأرض وما فيهما، من أفلاكٍ ونجوم، وجبالٍ وبحار، وتعاقبٍ لليل والنهار، وغيرها مما لا يحصر ويحصى من دلائل العظمة.

وقد دعا العباد لإعمال عقولهم، والنظر فيها نظر تفكرٍ وتدبرٍ، وتذكرٍ وتفهم؛ ليستدلوا بها على عظمة بارئها ومبدعها، فيخلصوا في عبادة خالقهم المنعم عليهم بجلائل النعم ودقائقها، ويخبتوا له محبةً وإجلالاً، وثناءً وتعظيماً، فهو المالك المقتدر المتصرف في هذا الكون الفسيح ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ۝٥ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَاۖ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾[سورة الزمر: ٥-٦].

والمذكورات في تضاعيف الآيتين، وتنضيد أجزائه، بيان وتقرير لأدلة القدرة الإلهية الباهرة الدالة على وحدانيته، وكمال ملكه التام المطلق، من خلق السموات والأرض وما بينهما، والتعاقب والتخالف بين الليل والنهار، وتذليل الشمس والقمر وفق نظامٍ وتقدير؛ لمصالح ومنافع العبادات والمخلوقات، وبيان أن الناس مع اختلاف أجناسهم، وتعدد لغاتهم، وتشعب أوطانهم، خلقوا من نفسٍ واحدةٍ، هي نفس آدم عليه الصلاة والسلام، فهم يرجعون وينتسبون إليه، وخلق منه زوجه حواء عليها الصلاة والسلام، كما خلق ثمانية أزواجٍ من الأنعام، المبين ذكرها في قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ

﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [سورة الأنعام: ١٤٣] والأزواج الثمانية تشمل الذكور والإناث.

ثم ختم ببيان مراحل خلق الإنسان وأطواره، وبداية تكوينه داخل ظلماتٍ ثلاث: ظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، وظلمة البطن(١).

إن من تجلت قدرته فيما سبق من بدائع الخلق، ودقائق التكوين، هو المستحق للألوهية الخالصة، والخوف والطمع، فهو المالك الواحد الأحد الصمد، فكيف يعبد معه غيره ؟ أو يكون له شريك في الملك ؟ أو تكون له صاحبة ؟ أو ينسب له الولد ؟ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

إنَّ من ضل عقله، واستحوذ عليه الشيطان، انصرف عن طريق النجاة في إخلاص العبادة لله وتوحيده، مع ظهور الدلائل، ووضوح البينات، الدافعة للإنقياد والتسليم، ووقور دعائم الإخلاص والتعظيم.

يقول البقاعي (ت: ٨٨٥هـ): "ولما تكفل السياق بوجوب الإخلاص في الإقبال عليه، والإعراض عما سواه؛ لأن الكل تحت قهره، وشمول نهيه وأمره؛ سبب عنه قوله: ﴿فَأَنَّىٰ﴾ أي: فكيف ومن أي وجهٍ ﴿تُصْرَفُونَ﴾ أي: قهراً عن الإخلاص له إلى الإشراك به بصارفٍ ما، وإن كان عظيماً"(٢).

ومن الشواهد المشاهدة الدالة على جلالة الإلهة المعبود، وقدرته على الإعادة بعد الإبادة، ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة الزمر: ٢١] وهو تمثيل لحال الحياة الدنيا وزهرتها الفانية،

---

(١) انظر: جامع البيان ٢٠/ ١٦٥، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧/ ٣٠٢٩.

(٢) نظم الدرر ٦/ ٤٢٣.

وسرعة انقضائها وزوالها، فالماء النازل من السماء يسكن في الأرض، ويفور بعد ذلك عيوناً متدفقة بالماء، تسقى به الأرض، فتنبت زرعاً مختلف الأصناف والطعوم، متعدد الألوان والهيئات، كل ذلك بأمر العليم القدير.

وبعد هذه الصورة الأخاذة، والمشهد الخلَّاب، تتلاشى تلك النضرة النباتية، إيذاناً بالانصرام وتغير الحال، فتيبس وتصفر بعد أناقتها ورونقها، ثم تؤول إلى التفتت والتكسر والبِلى.

وما أعمق مدلولات ومعاني هذا الوصف لمن تدبره وتأمله، فهو من أعظم التذكير، وأوضح التدليل على قضية البعث بعد الموت، وأن المحيي المميت هو المستحق للعبادة، وإخلاص الدين له.

ومن تأمل عظمته، وكمال تصرفه، ونفوذ مشيئته، استشعر معنى إخلاص الدين له، كما أمر وشرع، واستصحبه معه في جميع أموره وشئونه.

إن تعظيم الله تعالى من أجلِّ العبادات القلبية، ومنزلته تابعة للمعرفة، وعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الرب تعالى في القلب، وأعرف الناس به أشدهم له تعظيماً وإجلالاً[1].

فمن عظمه في نفسه، وعرفه حق معرفته، وامتلأ قلبه بالإجلال والتعظيم له، أخلص له القصد، فعبده حق عبادته، وائتمر بأوامره، وانكف عن زواجره.

لقد كان المصطفى –صلى الله عليه وسلم– يغرس مقام تعظيم الله تعالى في القلوب، والهيبة من جلالة علاَّم الغيوب، فهو أصل من أصول الاعتقاد، والإيمان مبني على تعظيم الله وإجلاله.

عن عبد الله بن مسعودٍ – رضي الله عنه – قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله– صلى الله عليه وسلم– فقال: يا محمد، إنا نجد: أن الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبعٍ، والشجر على إصبعٍ، والماء والثرى على إصبعٍ، وسائر الخلائق على إصبعٍ، فيقول: أنا الملك. فضحك النبي –صلى الله عليه وسلم– حتى بدت نواجذه تصديقا

(١) انظر: مدارج السالكين ٢/٤٩١.

لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [سورة الزمر: ٦٧]"[1].

وما في الآية يقتضي أن عظمته أعظم مما وصفه ذلك الحبر، فإن الذي في الآية أبلغ، في إثبات عظمته في نفسه، وما يستحق من الصفات، وأنه لا يستحق العبادة إلا هو، فله القدر العلي العظيم الذي يوجب على المؤمن أن يقدره حق قدره[2].

لقد ذم الله طريق المشركين وجهلهم به، وأخبر أنهم لم يعظموه حق تعظيمه، حيث قصَّروا في معرفته، والقيام بحقه، فضلوا السبيل بإشراكهم من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، ولو كانوا معظمين لربهم حقيقة لدفعهم ذلك إلى إخلاص توحيده، وإسلام الوجه له، والعمل بمرضاته، والوجل من عقابه.

يقول السعدي (ت: ١٣٧٦هـ) عند قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [سورة الزمر: ٦٧].

"يقول تعالى: وما قدر هؤلاء المشركون ربهم ﴿ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾: ولا عظَّموه حق تعظيمه، بل فعلوا ما يناقض ذلك من إشراكهم به من هو ناقص في أوصافه وأفعاله، فأوصافه ناقصة من كل وجهٍ، وأفعاله ليس عنده نفع ولا ضر ولا عطاء ولا منع ولا يملك من الأمر شيئاً، فسووا هذا المخلوق الناقص بالخالق الرب العظيم، الذي من عظمته الباهرة وقدرته القاهرة أن جميع الأرض يوم القيامة قبضة للرحمن، وأن السماوات على

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾، ٤/ ١٨١٢، رقم: (٤٥٣٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، ٤/ ٢١٤٧، رقم: (٢٧٨٦).

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٣/ ١٦٠ – ١٦٣.

سعتها وعظمها مطويات بيمينه، فلا عظَّمة حق عظمته من سوى به غيره، ولا أظلم منه. ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾؛ أي: تنزه، وتعاظم عن شركهم به"[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٨٦١.

الخـــاتمـــة

الحمد لله أهل الحمد ومستحقه، وفق وأعان، ويسَّر وبلَّغ فضلاً منه ومنَّةً، إتمام البحث وإخراجه، وبعد التطواف في رحابه، برزت نتائج جمَّة، يمكن تلخيصها فيما يلي:

أولاً: الإخلاص أساس العمل، وأحد قطبي قبوله، وبه تزكوا النفوس، وتتطهر الأعمال، وهو ينافي الشرك جليه وخفيه، والغش والخداع، والكذب والافتراء، وغير ذلك مما يشوبه ويناقضه، مما حاربه الإسلام ونبذه.

ثانياً: فضل قراءة سورة (الزمر)، حيث كان نبينا – صلى الله عليه وسلم – يحافظ على قراءتها كل ليلة، كما في حديث أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها –.

ثالثاً: أن المشهور تسميتها بسورة (الزمر)، ومن أسمائها الاجتهادية: سورة (الغرف) و(تنزيل).

رابعاً: مكية السورة، ونمطها في موضوعاتها يتناول تقرير أصول الاعتقاد.

خامساً: أن مقصود السورة الأساس: (الإخلاص لله تعالى)، ويظهر ذلك التناسب بين موضوعات السورة في سياق آياتها، والمقصد الذي تدور عليه، وما ورود (الإخلاص) بتصريفه والتنصيص عليه أربع مراتٍ في السورة إلا تأكيداً على أهميته، وتجدد معناه، ومطابقته لمقصود السورة التي ضمته، وصلته بالموضوعات التي انطوت عليه.

سادساً: تنوعت طرائق، وتعددت أساليب السورة الكريمة في التوجيه إلى الإخلاص: فتارة بأسلوب الأمر به، وأخرى بالنهي عن ضده، وحيناً بضرب المثل لتقريره، ومرة بتعزيز مفهومه وقيمته، وموطناً بذكر ما يدفع لتحقيقه، من التفكر والتأمل في ملكوته؛ مما يعمق التأكيد على أهمية الإخلاص، وحضور معناه؛ ليكون رائدنا في كل الأحوال.

سابعاً: أن الإخلاص أعظم أسباب إجابة الدعاء، فمن توجه بقلبٍ خالصٍ منيبٍ، فقمِن أن تجاب دعوته، ولو كان مشركاً.

ثامناً: عظم مكانة الإخلاص وأهله عند الله، فلهم الثواب العظيم، والجزاء الكريم، والفوز بجنة النعيم، والرضا من الرحمن الرحيم، المطلع على السر والخفيات، والمقاصد والنيات.

إلى غير ذلك من النتائج البحثية المبثوثة في ثناياه، والله أسأل أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم، ويديمني على الإخلاص في التوجه إليه حتى ألقاه، اللهم آمين.

وصلى الله وسلم وبارك على خير من أخلص الدين لربه، محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

* * *

ثبت المصـادر والمـراجـع

- الإتقـان فـي علـوم القـرآن، لجـلال الـدين الـسيوطي، تحقيـق: د. مـصطفى ديـب البغـا، دار ابـن كثيـر (دمشـق، بيروت)، دار العلوم الإنسانية، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.
- أحكام القرآن لابن الفرس الأندلسي، تحقيق: صلاح الدين بوعفيف، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.
- إحياء علوم الدين، للغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- الأدب المفرد، للبخاري، تحقيق: سمير الزهيري، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- أساس البلاغة، للزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- أسـباب النـزول والقـصص الفرقانيـة، لمحمـد بـن أسـعد العراقـي، تحقيـق: د. عـصام غـانم، مكتبـة الرشـد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.
- أسباب نزول القرآن، للواحدي، تحقيق: د. ماهر الفحل، دار الميمان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.
- الاستقامة، لابن تيمية، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، نشر: إدارة الثقافة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤١١هـ.
- أسـماء سـور القـرآن وفـضائلها، للـدكتوره منيـرة الدوسـري، دار ابـن الجـوزي، الـدمام، الطبعـة الأولى، ١٤٢٦هـ.
- الأسـماء والـصفات، للبيهقـي، تحقيـق: عبـد الله الحاشـدي، مكتبـة السـوادي، جـدة، الطبعـة الأولى، ١٤١٣هـ.
- الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية، للطوفي، تحقيق: حسن قطب، الفاروق الحديثة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ.
- الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، لمقاتل بين سليمان البلخي، تحقيق: د. عبد الله محمود شحاتة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ.

- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي، خرج آياته وأحاديثه: محمد الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- أعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم، تحقيق: بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- الإكليل في استنباط التنزيل، لجلال الدين السيوطي، تحقيق: د. عامر بن علي العرابي، دار الأندلس الخضراء، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله (مع نماذج من بعض الأمثال)، للدكتور عبد الله الجربوع، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة النبوية، الطبعة الثانية، ١٤٢٨هـ.
- الأمثال في القرآن الكريم (أنواعها، موضوعاتها، أسلوبها)، للدكتور حمد المنصور، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.
- أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، للدكتور عبد الله شحاته، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦م.
- البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وشركاه، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- البرهان في تناسب سور القرآن، لابن الزبير الثقفي، تحقيق: د. سعيد الفلاح، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.
- البرهان في علوم القرآن، للزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٨هـ.
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروزآبادي، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت.
- البيان في عد آي القرآن، لأبي عمرو الداني، تحقيق: د. غانيم قدوري الحمد، منشورات مركز المخطوطات والتراث والوثائق، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر، تحقيق: محب الدين عمر العمروي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٦هـ.
- تبصير الرحمن وتيسير المنان، لعلي المهايمي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

- التبيان في تفسير غريب القرآن، لأحمد المصري، تحقيق: د. فتحي أنوار الدابولي، دار الصحابة، طنطا، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، (بدون رقم الطبعة، ولا اسم الدار).
- التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي الكلبي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٣هـ.
- التعريفات، للجرجاني، تحقيق: د. محمد المرعشلي، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- تفسير التستري، لسهل التستري، علق عليه: محمد السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
- تفسير السمرقندي، للسمرقندي، تحقيق: علي معوض وشركاه، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- تفسير القرآن العزيز، لابن أبي زمنين، تحقيق: عبد الله عكاشة، ومحمد الكنز، الفاروق الحديثة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تحقيق: د. محمد إبراهيم البنا، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني، تحقيق: ياسر بن عبد الله، وغنيم بن عباس، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- التفسير الكبير، للرازي، إعداد مكتب تحقيق دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- تفسير النسائي، للنسائي، تحقيق: صبري الشافعي، وسيد الجليمي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، لنظام الدين القمي النيسابوري، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- تفسير غريب القرآن لابن الملقن، تحقيق: سمير طه المجذوب، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

- تفسير كتاب الله العزيز، لهود بن محكم الهواري، تحقيق: بالحاج بن سعيد الشريفي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.
- تفسير مبهمات القرآن الموسوم بصلة الجمع وعائد التذييل لموصول كتابي الاعلام والتكميل، لأبي عبد الله محمد بن علي البلنسي، تحقيق: حنيف بن حسن القاسمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- تفسير مقاتل بن سليمان، لمقاتل، تحقيق: أحمد فريد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- التكملة والإتمام لكتاب التعريف والاعلام فيما أبهم من القرآن، لابن عساكر، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، لجمال الدين المزي، تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السادسة، ١٤١٥هـ.
- تهذيب اللغة، للأزهري، تحقيق: عبد السلام هارون، (بدون رقم الطبعة، ولا اسم الناشر).
- التيسر في التفسير، لعبد العزيز الديريني، تحقيق: د. مصطفى محمد الذهبي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- التيسير العجيب في تفسير الغريب، لابن المنير، تحقيق: سليمان ملا إبراهيم أوغلو، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن السعدي، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الثانية، ١٤٢٦هـ.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، تحقيق: د. عبد الله التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات بدار هجر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، لمحمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت.

- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، لابن رجب الحنبلي، مكتبة طيبة، المدينة النبوية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ.
- الجامع تفسير القرآن، لعبد الله بن وهب المصري، تحقيق: ميكلوش موراني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.
- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، لأبي عبد الله القرطبي، تحقيق: د. عبد الله التركي ومجموعة، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.
- الجامع لشعب الإيمان، للبيهقي، تحقيق: د. عبد العلي حامد، ومختار الندوي، الدار السلفية، بومباي، الهند، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
- جمال القراء وكمال الإقراء، لعلم الدين السخاوي، تحقيق: عبد الحق القاضي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- جواهر الألفاظ، لأبي الفرج بن قدامة البغدادي، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ.
- الجواهر الحسان في تفسير القرآن، للثعالبي، تحقيق: أبي محمد الغماري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، لابن القيم، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ١٤٢٨هـ.
- حسن المدد في معرفة فن العدد، لإبراهيم بن عمر الجعبري، تحقيق: بشير بن حسن الحميري، رسالة ماجستير، بجامعة العلوم والتكنولوجيا، صنعاء، ١٤٢٥هـ.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصفهاني، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- خصائص السور والآيات المدنية ضوابطها ومقاصدها، لعادل أبو العلا، دار القبلة الثقافية الإسلامية، جدة، مؤسسة علوم القرآن، بيروت.
- خواطر قرآنية نظرات في أهداف سور القرآن، لعمرو خالد، دار أريج، الدقي، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لجلال الدين السيوطي، تحقيق: د. عبد الله التركي بالتعاون مع مركز هجر، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ.
- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، للبيهقي، تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ.
- الذريعة إلى مكارم الشريعة، للراغب الأصفهاني، تعليق: محمود بيجو، دار اقرأ، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- الرسالة القشيرية، لعبد الكريم بن هوازن القشيري، تحقيق: معروف مصطفى زريق، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.
- زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، تحقيق: د. محمد عبد الرحمن عبد الله، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- الزيادة والإحسان في علوم القرآن، مجموعة رسائل جامعية، جامعة الشارقة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤١٥هـ.
- السنن الكبرى، للنسائي، تحقيق: حسن شلبي مع مجموعة، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- السنن، لابن ماجه القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر.
- الشامل في فقه الخطيب والخطبة، للدكتور سعد الشريم، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن قيم الجوزية، تحقيق: عمر بن سليمان الحُفيان، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- شواذ القراءات، لمحمد بن أبي نصر الكرماني، تحقيق: د. شمران العجلي، مؤسسة البلاغ، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- الصحاح، للجوهري، تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- صحيح ابن خزيمة، لمحمد بن إسحاق بن خزيمة، تحقيق: د. محمد الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ.
- صحيح البخاري، (الجامع المسند الصحيح...) ضبط وتعليق: د. مصطفى ديب البغا، نشر: دار ابن كثير، واليمامة (دمشق، بيروت)، الطبعة الخامسة، ١٤١٤هـ.
- صحيح مسلم (المسند الصحيح...)، لمسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ.
- صفة الجنة في القرآن الكريم – دراسة وتحليل –، لعبد الحليم السلفي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة النبوية، دار العلوم والحكم، سوريا، الطبعة الثالثة، ١٤٢٧هـ.
- ضرب الأمثال في القرآن (أهدافه التربوية وآثاره)، لعبد المجيد البيانوني، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- الطبقات الكبرى، لابن سعد، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ.
- عجالة الراغب المتمني في تخريج كتاب عمل اليوم والليلة لابن السُني، لسليم الهلالي، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- عقيدة التوحيد وبيان ما يضادها أو ينقصها من الشرك الأكبر والأصغر والتعطيل والبدع وغير ذلك، للدكتور صالح الفوزان، مؤسسة الحرمين الخيرية.
- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، للسمين الحلبي، تحقيق: د. محمد التونجي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

- غرائب التفسير وعجائب التأويل، للكرماني، تحقيق: د. شمراني العجلي، نشر: دار القبلة، بجدة، ومؤسسة علوم القرآن، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- غراس الأساس، لابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. توفيق محمد شاهين، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- غرر التبيان في من لم يسم في القرآن، لبدر الدين بن جماعة، تحقيق: د. عبد الجواد خلف، دار قتيبة، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- فتاوى العقيدة، لابن عثيمين، دار ابن الهيثم، القاهرة.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، للشوكاني، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ.
- فتح المجيد، شرح كتاب التوحيد، لعبد الرحمن آل الشيخ، دار الخير، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، علق عليه: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما أنزل بالمدينة، لابن الضُريس البجلي، تحقيق: غزوة بدير، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- فضائل القرآن، لأبي العباس المستغفري، تحقيق: د. أحمد السلوم، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.
- فنون الأفنان في عيون علوم القرآن، لابن الجوزي، تحقيق: د. حسن ضياء الدين عتر، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- الفنون، لأبي الوفاء علي بن عقيل الحنبلي، تحقيق: د. جورج المقدسي، دار الشرق، بيروت.
- الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة، لأبي علي الشوشاوي، تحقيق: إدريس عزوزي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ١٤٠٩هـ.
- قاموس القرآن، للدامغاني، تحقيق: عبد العزيز الأهل، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٥م.
- قانون التأويل، لابن العربي ، تحقيق: محمدالسليماني ، دارالغرب الإسلامي ، الطبعةالثانية ، ١٩٩٠

- القصيدة النونية، لابن القيم، دار المعرفية، بيروت.
- القواعد الكبرى الموسوم بقواعد الأحكام في إصلاح الأنام، لابن عبد السلام، تحقيق: د. نزيه حماد، ود. عثمان ضميرية، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- القول الوجيز في فواصل الكتاب العزيز على ناظمة الزهر، للإمام الشاطبي، تحقيق: عبد الرزاق علي موسى، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- القياس في القرآن الكريم والسنة النبوية (دراسة نظرية تطبيقية)، لوليد آل حسين، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.
- الكتاب الأوسط في علم القراءات، للحسن بن علي العماني، تحقيق: د. عزة حسن، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.
- كشاف اصطلاحات الفنون، للتهانوي الحنفي، وضع حواشيه: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للزمخشري، تحقيق عادل عبد الموجود وشركاه، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- الكشف والبيان، لأبي إسحاق الثعلبي، تحقيق: ابن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- الكليات، لأبي البقاء الكفوي، تحقيق: د. عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.
- لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن، ضبطه وصححه: عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- لباب النقول في أسباب النزول، لجلال الدين السيوطي، تحقيق: خالد عبد الفتاح شبل، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.

- لمحات الأنوار ونفحات الأزهار وري الظمآن لمعرفة ما ورد من الآثار في ثواب قارئ القرآن، لمحمد الغافقي، تحقيق: د. رفعت فوزي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- مجمع البيان في تفسير القرآن، للطبرسي، تحقيق: هاشم المحلاتي، فضل الله الطباطبائي، دار المعرفة، بيروت.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن قاسم، دار عالم الكتب، الرياض، ١٤١٢هـ.
- محاسن التأويل، لجمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، تحقيق: عبد السلام محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- المحرر في أسباب نزول القرآن (من خلال الكتب التسعة) دراسة لأسباب رواية ودراية، للدكتور خالد المزيني، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.
- المختصر في أسماء السور، للدكتور إبراهيم الهويمل، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الثلاثون.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم، تحقيق: بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد، لمحمد الجاوي، تحقيق: محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

- مسند الإمام أحمد بن حنبل، بإشراف: د. عبد الله التركي، وقام بتحقيقه مجموعة من المحققين، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.
- مسند الشهاب، للقضاعي، تحقيق: حمدي السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- المصنف، لعبد الرزاق الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٣٩١هـ.
- معالم التنزيل، للبغوي، تحقيق: محمد النمر، وعثمان ضميرية، وسليمان الحرش، دار طيبة، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.
- معاني القرآن الكريم، لأبي جعفر النحاس، تحقيق: محمد الصابوني، نشر: معهد البحوث العلمية، وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- معاني القرآن وإعرابه، للزجاج، تحقيق: د. عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- المعجم الكبير، للطبراني، تحقيق: حمدي السلفي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية.
- المعجم الكبير، للطبراني، تحقيق: حمدي السلفي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية.
- مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ.
- مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- المكي والمدني في القرآن الكريم، للدكتور محمد الشايع، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، لابن تيمية، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، إدارة الثقافة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ.
- موسوعة فضائل سور وآيات القرآن، لمحمد الطرهوني، مكتبة العلم، جدة، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.
- الناسخ والمنسوخ في كتاب الله عز وجل واختلاف العلماء في ذلك، لأبي جعفر النحاس، تحقيق: د. سليمان الملاحم، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لابن الجوزي، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين البقاعي، علق عليه: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- نكت القرآن الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام، لمحمد القصاب، تحقيق: د. شايع الأسمري، دار ابن القيم، الدمام، دار ابن عفان، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- النكت والعيون، للماوردي، تعليق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.
- نواقض الإيمان القولية والعملية، للدكتور عبد العزيز آل عبد اللطيف، دار الوطن، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ.
- وجوه القرآن الكريم، لأبي عبد الرحمن إسماعيل الحيري، تحقيق: فاطمة يوسف الخيمي، دار السقا، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.
- الوسيط في تفسير القرآن المجيد، للواحدي، تحقيق: عادل عبد الموجود وشركائه، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

* * *